جبران خليل جبران

الأجنحة المتكسرة

Bibliotheca Alexandrina
0201881

المكتبة الثقافية

جبران خليل جبران

الأجنحة المتكسرة

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

الى التي تحدق الى الشمس
بأجفان جامدة ، وتقبض
على النار بأصابع غير
مرتعشة ، وتسمع نغمة
الروح « الكلي » من وراء
ضجيج العميان وصراخهم
الى M . E . H , أرفع
هذا الكتاب .

جبران

فهرست

الموضوع	صفحة
كلمة الناشر	٥
توطئة	٧
الكآبة الخرساء	١١
يد القضاء	١٥
في باب الهيكل	٢٠
الشعلة البيضاء	٢٥
العاصفة	٢٩
بحيرة النار	٤٣
أمام عرش الموت	٦١
بين عشتروت والمسيح	٧٧
التضحية	٨٤
المنقذ	٩٥

توطئة

•

كنت في الثامنة عشرة عندما فتح الحب عيني بأشعته السحرية ، ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه النارية . وكانت سلمى كرامه المرأة الأولى التي أيقظت روحي بمحاسنها ، ومشت أمامي إلى جنة العواطف العلوية ، حيث تمر الأيام كالأحلام وتنقضي الليالي كالأعراس .

سلمى كرامه هي علمتني عبادة الجمال بجمالها ، وأرتني خفايا الحب بانعطافها ، وهي التي أنشدت على مسمعي أول بيت من قصيدة الحياة المعنوية .

أي فتى لا يذكر الصبية الأولى التي أبدلت غفلة شبيبته بيقظة هائلة بلطفها ، جارحة بعذوبتها ، فتاكة بحلاوتها ؟ من منا لا يذوب حنيناً إلى تلك الساعة الغريبة التي إذا انتبه فيها فجأة رأى كليته قد انقلبت وتحولت ، وأعماقه قد اتسعت وانبسطت وتبطنت بانفعالات لذيذة بكل ما فيها من مرارة الكتمان، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق والسهاد ؟

لكل فتى سلمى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته وتجعل لانفراده معنى شعرياً وتبدل وحشة أيامه بالأنس ، وسكينة لياليه بالأنغام .

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والأسفار عندما سمعت الحب يهمس بشفتي سلمى في آذان نفسي ، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم في الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبة أمامي كعمود النور . فسلمى كرامه هي حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب، وهي التي افهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة أمام هذه الأشباح. حواء الأولى اخرجت آدم من الفردوس بإرادتها وانقياده ، أما سلمى كرامه فأدخلتني الى جنة الحب والطهر بحلاوتها واستعدادي ، ولكن ما أصاب الإنسان الأول قد أصابني ، والسيف الناري الذي طرده من الفردوس هو كالسيف الذي أخافني بلمعان حده وأبعدني كرهاً عن جنة المحبة قبل أن أخالف وصية وقبل أن أذوق طعم ثمار الخير والشر .

واليوم ، وقد مرت الأعوام المظلمة طامسة بأقدامها رسوم تلك الأيام ، لم يبق لي من ذلك الحلم الجميل سوى تذكارات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول رأسي مثيرة تنهدات الأسى في أعماق صدري مستقطرة دموع اليأس والأسف من أجفاني .. وسلمى — سلمى

الجميلة العذبة قد ذهبت إلى مـا وراء الشفق الأزرق ولم يبق من آثارها في هـذا العالم سوى غصات أليمة في قلبي وقبر رخامي منتصب في ظلال أشجار السرو . فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقي ليحدث الوجـود عن سلمى كرامه ، غير أن السكينة التي تخفر القبور لا تفشي ذلك السر المصون الذي أخفته الآلهـة في ظلمات التابوت ، والأغصان التي امتصت عناصر الجسد لا تبيح بحفيفهـا مكنونات الحفرة . اما غصات هذا القلب وأوجـاعه فهي التي تتكلم وهي التي تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة النور أشباح تلك المأساة التي مثلها الحب والجمال والموت .

فيا أصدقاء شبيبتي المنتشرين في بيروت ، إذا مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين وسيروا ببطء كيلا تزعج أقدامكم رفـات الراقدين تحت أطباق الثرى ، وقفوا متهيبين بجانب قبر سلمى وحيوا عني التراب الذي ضم جثمانها ثم أذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم: ههنا دفنت آمال ذلك الفتى الذي نفته صروف الدهر الى ما وراء البحـار ، وههنـا توارت أمانيه وانزوت أفراحـه وغارت دموعه واضمحلت ابتساماته ، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته مع أشجار السرو والصفصاف ، وفوق هـذا القبر ترفرف روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى ، مرددة مع أشباح الوحشة ندبات الحزن والأسى ، نائحة مـع الغصون على صبية كانت

بالأمس نغمة شجية بين شفتي الحياة فأصبحت اليـــوم سراً صامتاً في صدر الأرض .

استحلفكم يا رفاق الصبا بالنساء اللواتي احببتهن" قلوبكم ان تضعوا أكاليل الأزهار على قبر المرأة التي أحبها قلبي — فرب زهرة تلقونها على ضريح منسي تكون كقطرة النــــدى التي تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الوردة الذابلة .

الكآبة الخرساء

●

أنتم أيها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع رسومه متأسفين على انقضائه ، أما أنا فأذكره مثلما يذكر الحر المعتق جدران سجنه وثقل قيوده . أنتم تدعون تلك السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب عهداً ذهبياً يهزأ بمتاعب الدهر وهواجسه ويطير مرفرفاً فوق رؤوس المشاغل والهموم مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة سائرة نحو البساتين المزهرة ؛ أما أنا فلا استطيع أن أدعو سني الصبا سوى عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن قلبي وتثور كالعواصف في جوانبه وتتكاثر نامية بنموه ، ولم تجد منفذاً تنصرف منه الى عالم المعرفة حتى دخل اليه الحب وفتح أبوابه وأنار زواياه . فالحب قد أعتق لساني فتكلمت ومزق أجفاني فبكيت وفتح حنجرتي فتنهدت وشكوت .

أنتم أيها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات وجوانب الشوارع التي رأت ألعابكم وسمعت همس طهركم ، وأنا أيضاً أذكر تلك البقعة الجميلة من شمال لبنان ، فما

أغمضت عينيّ عن هذا المحيط إلا رأيت تلك الأودية المملوءة سحراً وهيبة، وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء، ولا صممت أذني عن ضجة هذا الاجتماع إلا سمعت خرير تلك السواقي وحفيف تلك الغصون . ولكن هــذه المحاسن التي أذكرها الآن وأتشوق اليها تشوق الرضيع إلى ذراعي أمه هي هي التي كانت تعذب روحي المسجونة في ظلمة الحداثة مثلما يتعذب البازي بين قضبان قفصه عندما يرى أسراب البزاة تسبح حرة في الخلاء الواسع — وهي التي كانت تملأ صدري بأوجاع التأمل ومرارة التفكير وتنسج بأصابع الحيرة والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبي — فلم أذهب إلى البرية إلا عدت منها كئيباً جاهلا أسباب الكآبة ، ولا نظرت مساء إلى الغيوم المتلونة بأشعة الشمس إلا شعرت بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض، ولا سمعت تغريدة الشحرور أو أغنية الغدير إلا وقفت حزينا لجهلي موحيات الحزن .

يقولون ان الغباوة مهد الخلو والخلو مرقد الراحة — وقد يكون ذلك صحيحاً عند الذين يولدون أمواتاً ويعيشون كالاجساد الهامدة الباردة فوق التراب ، ولكن إذا كانت الغباوة العمياء قاطنة في جوار العواطف المستيقظة تكون الغباوة أقسى من الهاوية وأمر من الموت. والصبي الحساس الذي يشعر كثيراً ويعرف قليلا هو أتعس المخلوقات أمام وجه الشمس لأن نفسه تظل واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين :

قوة خفيفة تحلق به في السحاب وتريه محاسن الكائنات من وراء ضباب الأحلام ، وقوة ظاهرة تقيده بالأرض وتغمر بصيرته بالغبار وتتركه ضائعاً خائفاً في ظلمة حالكة .

للكآبة ايد حريرية الملامس قوية الأعصاب تقبض على القلوب وتؤلمها بالوحدة ، فالوحدة حليفة الكآبة كما أنها أليفة كل حركة روحية . ونفس الصبي المنتصبة أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكآبة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتعش أمام النسيم وتفتح قلبها لأشعة الفجر وتضم اوراقها بمرور أخيلة المساء ، فان لم يكن للصبي من الملاهي ما يشغل فكرته ومن الرفاق من يشاركه في الميول كانت الحياة امامه كحبس ضيق لا يرى في جوانبه غير انوال المناكب ولا يسمع من زواياه سوى دبيب الحشرات .

أما تلك الكآبة التي اتبعت أيام حداثتي فلم تكن ناتجة عن حاجتي الى الملاهي لأنها كانت متوفرة لدي ، ولا عن افتقاري إلى الرفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت ، بل هي من اعراض علة طبيعية في النفس كانت تحبب اليّ الوحدة والانفراد ، وتميت في روحي الميول الى الملاهي والالعاب ، وتخلع عن كتفي أجنحة الصبا ، وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه الحزن رسوم الأشباح وألوان الغيوم وخطوط الأغصان ، ولكنه لا يجد ممراً يسير فيه جدولاً مترنماً إلى البحر .

هكذا كانت حياتي قبل أن ابلغ الثامنة عشرة، فتلك السنة هي من ماضي بمقام القمة من الجبل لانها أوقفتني متأملاً تجاه هذا العالم وأرتني سبل البشر ومروج ميولهم وعقبات متاعبهم وكهوف شرائعهم وتقاليدهم .

في تلك السنة ولدت ثانية ، والمرء ان لم تحبل به الكآبة ويتمخض به اليأس وتضعه المحبة في مهد الاحلام تظل حياته كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان .

في تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر اليّ من وراء أجفان امرأة جميلة ، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون ويتراكضون في صدر رجل مجرم — ومن لا يشاهد الملائكة والشياطين في محاسن الحياة ومكروهاتها يظل قلبه بعيداً عن المعرفة ونفسه فارغة من العواطف .

يد القضاء

●

كنت في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب ، وكان نيسان قد أنبت الأزهار والأعشاب فظهرت في بساتين المدينة كأنها اسرار تعلنها الأرض للسماء .وكانت أشجار اللوز والتفاح قد اكتست بحلل بيضاء معطرة فبانت بين المنازل كأنها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهن الطبيعة عرائس وزوجات لابناء الشعر والخيال .

الربيع جميل في كل مكان ولكنه اكثر من جميل في سوريا.. الربيع روح إله غير معروف تطوف في الأرض مسرعة وعندما تبلغ سوريا تسير ببطء متلفتة الى الوراء مستأنسة بأرواح الملوك والأنبياء الحائمة في الفضاء ، مترنمة مع جداول اليهودية بأناشيد سليمان الخالدة ، مرددة مع أرز لبنان تذكارات المجد القديم .

وبيروت في الربيع أجمل منها في ما بقي من الفصول لانها تخلو فيه من أوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين أمطار الأول وحرارة الثاني كصبية حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير ثم جلست على ضفته تجفف جسدها بأشعة الشمس .

ففي يوم من تلك الأيام المفعمة بأنفـــاس نيسان المسكرة وابتساماته المحيية ، ذهبت لزيارة صـديق يسكن بيتاً بعيداً عن ضجة الاجتماع. وبينما نحن نتحدث راسمين بالكلام خطوط آمالنا وأمانينا دخل علينا شيخ جليل في الخامسة والستين من عمره تدل ملابسه البسيطة وملامحه المتجعدة على الهيبة والوقار فوقفت احتراماً ، وقبيل ان اصافحه مسلماً تقـبـدم صديقي وقال : حضرته فارس أفندي كرامه . ثم لفظ اسمي مشفوعاً بكلمة ثناء ، فحدق إليّ الشيخ هنيهة لامساً باطراف اصابعه جبهته العالية المكللة بشعر أبيض كالثلج كأنه يريد أن يسترجع إلى ذاكرته صورة شيء قديم مفقود ثم ابتسم ابتسامة سرور وانعطاف واقترب مني قائـلا : انت ابن صديق حبيب قديم صرفت ربيع العمر برفقتـه ، فما أعظم فرحي برآك وكم أنا مشتاق إلى لقاء أبيك بشخصك !

فتأثرت لكلامه وشعرت بجاذب خفي يدنيني اليه بطمأنينة مثلما تقود الغريزة العصفور إلى وكره قبيـل مجيء العاصفة . ولما جلسنا أخذ يقص علينا أحاديث صداقته لوالدي متذكراً أيام الشباب التي صرفها بقربه تالياً على مسامعنا اخبار أعوام قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صـدره ... ان الشيوخ يرجعون بالفكر إلى أيام شبابهم رجوع الغريب المشتاق إلى مسقط رأسه ، ويميلون الى سرد حكايات الصبـا ميل الشاعر إلى تنغيم أبلغ قصائده ، فهم يعيشون بالروح في زوايا

الماضي الغـــابر لان الحاضر يمر بهم ولا يلتفت ، والمستقبل يبدو لأعينهم متشحاً بضباب الزوال وظلمة القبر .

وبعد ساعة مرت بين الأحاديث والتذكارات مرور ظل الأغصان على الأعشاب ، وقف فارس كرامه للانصراف ، ولما دنوت منه مودعاً أخذ يدي بيمينه ووضع شماله على كتفي قائلاً : أنا لم أرَ والدك منذ عشرين سنة ولكنني أرجو ان أستعيض عن بعاده الطويل بزياراتك الكثيرة .

فانحنيت شاكراً واعداً بتتميم مـــا يجب على الابن نحو صديق أبيه .

ولما خرج فارس كرامه استزدت صاحبي من أخباره فقال بلهجة يساورها التحذر : لا اعرف رجلاً سواه في بيروت قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة مثريا . وهو واحد من القليلين الذين يجيئون هـــذا العالم ويغادرونه قبل أن يلامسوا بالأذى نفس مخلوق ، ولكن هؤلاء الرجـــال يكونون غالباً تعساء مظلومين ، لأنهم يجهلون سبل الاحتيال التي تنقذهم من مكر الناس وخبثهم ... ولفارس كرامه ابنة وحيدة تسكن معه منزلاً فخماً في ضاحية المدينة ، وهي تشابهه بالأخلاق وليس بين النساء من تماثلها رقة وجمالاً ، وهي ايضاً ستكون تاعسة لأن ثروة والدها الطائلة توقفها الآن على شفير هاوية مظلمة مخيفة .

لفظ صديقي الكلمات الأخيرة وظهرت على محياه لوائح الغم والأسف ثم زاد قائلا : فارس كرامه شيخ شريف القلب كريم الصفات ولكنه ضعيف الارادة يقوده رياء الناس كالأعمى وتوقفه مطامعهم كالأخرس . أما ابنته فتخضع ممتثلة لارادته الواهنة على رغم كل مافي روحها الكبيرة من القوى والمواهب. وهذا هو السر الكامن وراء حياة الوالد وابنته . وقد فهم هذا السر رجل يأتلف في شخصه الطمع بالرياء والخبث بالدهاء ، وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظل الانجيل فتظهر للناس كالفضائل.هو رئيس دين في بلاد الأديان والمذاهب تخافه الأرواح والأجساد وتخر لديه ساجدة مثلما تنحني رقاب الانعام أمام الجزار . ولهذا المطران ابن أخ تتصارع في نفسه عناصر المفاسد والمكاره مثلما تتقلب العقارب والأفاعي على جوانب الكهوف والمستنقعات . وليس بعيـــداً اليوم الذي ينتصب فيه المطران بملابسه الحبرية جاعلا ابن أخيه عن يمينه وابنة فارس كرامه عن شماله رافعاً بيده الأثيمة اكليل الزواج فوق رأسيهما مقيداً بسلاسل التكهين والتعزيم جسداً طاهراً بجيفة منتنة ، جامعاً في قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية بذات ترابية ، واضعاً قلب النهار في صدر الليل . هذا كل ما أستطيع ان اقوله لك الآن عن فارس كرامه وابنته فلا تسلني اكثر من ذلك لأن ذكر المصيبة يدنيها مثلما يقرب الموت الخوف من الموت .

وحوّل صديقي وجهه ونظر من النافذة الى الفضاء كأنه يبحث عن أسرار الأيام والليالي بين دقائق الأثير .

فقمت إذ ذاك من مكاني ، ولما اخذت يده مودعاً قلت له : غداً أزور فارس كرامه قياماً بوعدي له واحتراماً للتذكارات التي ابقتها صداقته لوالدي .

فبهت بي الشاب دقيقة وقـــد تغيرت ملامحه كأن كلماتي القليلة البسيطة قد أوحت اليه فكراً جديداً هائلاً ، ثم نظر في عيني نظرة طويلة غريبة – نظرة محبة وشفقة وخوف – نظرة نبي يرى في أعماق الارواح ما لا تعرفـه الارواح ، ثم ارتعشت شفتاه قليلاً ولكنه لم يقل شيئاً ، فتركتـه وسرت نحو الباب بأفكار متضعضعة ، وقبيـل ان يلتفت الى الوراء رأيت عينيه ما زالتـا تتبعاني بتلك النظرة الغريبة – تلك النظرة التي لم أفهم معانيها حتى عتقت نفسي من عالم المقاييس والكمية وطارت إلى مسارح الملإ الأعلى حيث تتفاهم القلوب بالنظرات وتنمو الارواح بالتفاهم .

في باب الهيكل

•

وبعد أيام وقد مللت الوحدة وتعبت أجفاني من النظر الى أوجه الكتب العابسة علوت مركبة طالباً منزل فارس كرامه ، حتى إذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث يذهب القوم للتنزه حوّل السائق وجهة فرسيه عن الطريق العمومية فسار خبباً على ممر تظلله اشجار الصفصاف وتتمايل على جانبيه الأعشاب والدوالي المتعرشة وأزاهر نيسان المبتسمة بثغور. حمراء كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب .

وبعد دقيقة وقفت المركبة أمام منزل منفرد تحيط بـه حديقة مترامية الأطراف تتعانق في جوانبها الاغصان وتعطر فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين .

ما سرت بضع خطوات في تلك الحديقة حتى ظهر فارس كرامه في باب المنزل خارجاً للقائي كأن هدير المركبة في تلك البقعة المنفردة قد أعلن له قدومي ، فهش متأهلاً وقادني مرحباً الى داخل الدار ، ونظير والد مشتاق اجلسني بقربه يحدثني مستفسراً عن ماضيّ مستطلعاً مقاصدي في مستقبلي ، فكنت أجيبه بتلك اللهجة المفعمة بنغمة الأحلام والأماني

التي يترنم بها الفتيان قبل أن تقذفهم أمواج الخيال إلى شاطىء العمل حيث الجهاد والنزاع ... للشبيبة أجنحة ذات ريش من الشعر وأعصاب من الأوهام ترتفع بالفتيان إلى مـــا وراء الغيوم فيرون الكيان مغموراً بأشعة متلونة بألوان قوس قزح ، ويسمعون الحياة مرتلة أغاني المجد والعظمة ، ولكن تلك الأجنحة الشعرية لا تلبث أن تمزقها عواصف الاختبار فيهبطون إلى عالم الحقيقة ، وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى فيها المرء نفسه مصغرة مشوهة .

في تلك الدقيقة ظهرت من بين ستائر الباب المخملية صبية ترتدي أثواباً من الحرير الأبيض الناعم ومشت نحوي ببطء ، فوقفت ووقف الشيخ قائلاً : هذه ابنتي سلمى . وبعد أن لفظ اسمي شفعه بقوله : ان ذاك الصديق القديم الذي حجبته عني الأيام قد عادت فأبانته لي بشخص ابنه ، فأنا أراه الآن ولا أراه . فتقدمت الصبية إلي وحدقت إلى عينيّ كأنها تريد أن تستنطقهما عن حقيقة امري وتعلم منهما أسباب مجيئي إلى ذلك المكان ، ثم اخذت يدي بيد تضارع زنبقة الحقل بياضاً ونعومة ، فأحسست عند ملامسة الأكف بعاطفـــة غريبة جديدة اشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في مخيلة الكاتب .

جلسنا جميعاً ساكتين كأن سلمى قد ادخلت معها إلى تلك الغرفة روحاً علوية توعز الصمت والتهيب ، وكأنها شعرت بذلك فالتفتت نحوي وقالت مبتسمة : كثيراً مـــا حدثني

والدي عن ابيك معيداً على مسمعي حكايات شبابهما ، فان كان والدك قد اسمعك تلك الوقائع فلا يكون هذا اللقاء هو الأول بيننا .

فسر الشيخ بكلمات ابنته وانبسطت ملامحه ثم قال : ان سلمى روحية الميول والمذاهب ، فهي ترى جميع الأشياء سابحة في عالم النفس .

وهكذا عاد فارس كرامه الى محادثتي باهتمام كلي ورقة متناهية كأنه وجد فيّ سرّاً سحرياً يرجعه على اجنحة الذكرى الى ربيع ايامه الغابرة .

كان ذلك الشيخ يحدق اليّ مسترجعاً اشباح شبابه وانا اتأمله حالماً بمستقبلي ، كان ينظر اليّ مثلما تخيم اغصان الشجرة العالية الملوية بمآتي الفصول فوق غرسة صغيرة مفعمة بعزم هاجع وحياة عمياء. شجرة مسنة راسخة الأعراق قد اختبرت صيف العمر وشتاءه ووقفت امام عواصف الدهر وانوائه ، وغرسة ضعيفة لينة لم ترَ غير الربيع ولم ترتعش إلا بمرور نسيم الفجر .

امـــا سلمى فكانت ساكتة تنظر الي تارة وطوراً إلى ابيها كأنها تقرأ في وجهينا اول فصل من رواية الحياة وآخر فصل منها .

قضى ذلك النهار متنهداً انفاسه بين تلك الحدائق والبساتين وغابت الشمس تاركة خيال قبلة صفراء على قمم لبنان المتعالية قبالة ذلـــك المنزل وفارس كرامه يتلو عليّ أخباره فيذهلني وانا اترنم امامه بأغاني شبيبتي فاطربه ، وسلمى

جالسة بقرب تلك النافذة تنظر إلينا بعينيها الحزينتين ولا تتحرك وتسمع أحاديثنا ولا تتكلم كأنها عرفت ان الجمال لغة سماوية تترفع عن الاصوات والمقاطع التي تحدثها الشفاه والألسنة ، لغة خالدة تضم اليها جميع انغام البشر وتجعلها شعوراً صامتاً مثلما تجتذب البحيرة الهادئة أغاني السواقي الى أعماقها وتجعلها سكوتاً أبدياً . ان الجمال سر تفهمه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته ، أما أفكارنا فتقف أمامه محتارة محاولة تحديده وتجسيده بالألفاظ ولكنها لا تستطيع . هو سيال خاف عن العين يتموج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور . الجمال الحقيقي هو أشعة تنبعث من قدس أقداس النفس وتنير خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة وتكسب الزهرة لوناً وعطراً ــ هو تفاهم كلي بين الرجل والمرأة يتم بلحظة ، وبلحظة يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الميول ــ ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حباً ، فهل فهمت روحي روح سلمى في عشية ذلك النهار فجعلني التفاهم أراها أجمل امرأة امام الشمس ام هي سكرة الشبيبة التي تجعلنا نتخيل رسوماً واشباحاً لا حقيقة لها؟ هل اعمتني الفتوة فتوهمت الاشعة في عيني سلمى والحلاوة في ثغرها والرقة في قدها ام هي تلك الأشعة وتلك الحلاوة وتلك الرقةالتي فتحت عيني لتريني أفراح الحب وأحزانه ؟ لا أدري ولكنني أعلم انني شعرت بعاطفة لم أشعر بها قبل تلك الساعة.عاطفةجديدة تمايلت حول قلبي بهدوء يشابه رفرفة الروح على وجه الغمر قبل ان تبتدىء الدهور . ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادتي

وتعاسق مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بارادة ذلك الروح.

هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلمى لأول مرة ، وهكذا شاءت السماء واعتقتني على حين غفلة من عبودية الحيرة والحداثة لتسيرني حرّاً في موكب المحبة ، فالمحبة هي الحرية الوحيدة في هذا العالم لانها ترفع النفس إلى مقام سام لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ولا تسوده نواميس الطبيعة وأحكامها .

ولما وقفت للانصراف اقترب مني فارس كرامه وقال بصوت تعانقه رنة الاخلاص : الآن وقد عرفت الطريق الى هذا المنزل يجب أن تأتي اليه شاعراً بالثقة التي تقودك إلى بيت أبيك وأن تحسبني وسلمى كوالد وأخت لك – اليس كذلك يا سلمى ؟

فحنت سلمى رأسها إيجاباً ثم نظرت إليّ نظرة غريب ضائع وجد رفيقاً يعرفه .

ان تلك الكلمات التي قالها لي فارس كرامه هي النغمة الأولى التي أوقفتني بجانب ابنته أمام عرش المحبة هي استهلال الأغنية السماوية التي انتهت بالندب والرثاء . هي القوة التي شجعت روحينا فاقتربنا من النور والنار . هي الإناء الذي شربنا فيه الكوثر والعلقم .

وخرجت فشيعني الشيخ الى اطراف الحديقة ، فودعتها وقلبي يخفق في داخلي مثلما ترتعش شفتا العطشان بملامسة حافة الكأس .

الشعلة البيضاء

●

وانقضى نيسان وأنا أزور منزل فارس كرامه وألتقي سلمى وأجلس قبالتها في تلك الحديقة متأملاً محاسنها ، معجباً بمواهبها، مصغياً لسكينة كآبتها ، شاعراً بوجود أيد خفية تجتذبني اليها . فكل زيارة كانت تبين لي معنىً جديداً من معاني جمالها وسرّاً علوياً من أسرار روحها حتى أصبحت أمام عيني كتاباً أقرأ سطوره وأستظهر آياته وأترنم بنغمته ولا استطيع الوصول الى نهايته .

ان المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعاً بجمال الجسد هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالمحبة ونلمسها بالطهر ، وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس .

وسلمى كرامه كانت جميلة النفس والجسد ، فكيف أصفها لمن لا يعرفها ؟ هل يستطيع الجالس في ظل أجنحة الموت أن يستحضر تغريدة البلبل ، وهمس الوردة ، وتنهدة الغدير ؟ أيقدر الأسير المثقل بالقيود ان يلاحق هبوب نسمات الفجر ؟

ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام ؟ وهل يمنعني التهيب عن إظهار تخيال من أخيلة سلمى بالألفاظ الواهيـة اذا كنت لا استطيـع أن أرسم حقيقتها بخطوط من الذهب ؟ إن الجائع السائر في الصحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس إذا كانت السماء لا تمطره المن والسلوى .

كانت سلمى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضـــاء الحريرية كأشعة قمر دخلت من النافذة. وكانت حركاتها بطيئة متوازنة اشبه شيء بمقاطيع الالحان الاصفهانية ، وصوتها منخفضـــاً حلواً تقطعه التنهدات، فينسكب من بين شفتيها القرمزيتين مثلما تتساقط قطرات الندى عن تيجـــان الزهور بمرور تموجات الهواء .. ووجهها — ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجـــه سلمى كرامه ؟ بأية ألفاظ نقدر أن نصور وجهاً حزيناً هادئاً محجوباً وليس محجوباً بنقاب من الاصفرار الشفاف ؟ بأية لغة نقدر أن نتكلم عن ملامح تعلن في كل دقيقة سراً من أسرار النفس وتذكر الناظرين اليها بعالم روحي بعيد عن هذا العالم !

ان الجمال في وجه سلمى لم يكن منطبقاً على المقاييس التي وضعها البشر للجمال ، بـــل كان غريباً كالحلم او كالرؤيا او كفكر علوي لا يقاس ولا يحد ولا ينسخ بريشة المصور ، ولا يتجسم برخام الحفار . جمال سلمى لم يكن في شعرها الذهبي بل في هالة الطهر المحيطة به . ولم يكن في عينيها الكبيرتين بل في النور المنبعث منهما . ولا في شفتيها الورديتين بـــل في

الحلاوة السائلة عليها . ولا في عنقهـــا العاجي بل في كيفية انحنائه قليلاً إلى الأمام . جمال سلمى لم يكن في كمال جسدها بل في نبالة روحها الشبيهة بشعلة بيضاء متقدة سابحة بين الأرض واللانهاية . جمال سلمى كان نوعاً من ذلك النبوغ الشعري الذي نشاهد اشباحه في القصائد السامية والرسوم والانغام الخالدة . وأصحاب النبوغ تعساء مها تسامت أرواحهم تظل مكتنفة بغلاف من الدموع .

وكانت سلمى كثيرة التفكير قليلة الكلام ، لكن سكوتها كان موسيقياً ينتقل بجليسها الى مسارح الأحـــلام البعيدة ، ويجعله يصغي لنبضات قلبه ، ويرى أخيلة افكاره وعواطفه منتصبة أمام عينيه .

أما الصفة التي كانت تعانق مزايا سلمى وتساور أخلاقها فهي الكآبة العميقة الجارحة ، فالكآبة كانت وشاحاً معنوياً ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبة وغرابة ، وتظهـــر أشعة نفسهـــا من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء ضباب الصباح . وقد أوجدت الكآبة بين روحي وروح سلمى صلة المشابهة ، فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه ويسمع بصوته صدى مخبآت صدره ، فكأن الآلهة قد جعلت كل واحد منـــا نصفاً للآخر يلتصق به بالطهر فيصير انساناً كاملاً ، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجع في روحه .

إن النفس الحزينة المتـــألمة تجد راحة بانضمامها الى نفس

أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالاحساس مثلمـــا يستأنس الغريب بالغريب في أرض بعيدة عن وطنها — فالقلوب التي تدنيها أوجاع الكآبة بعضها من بعض لا تفرقها بهجة الأفراح وبهرجتها . فرابطة الحزن أقوى في النفوس من روابط الغبطة والسرور . والحب الذي تغسله العيون بدموعها يظل طاهراً وجميلاً وخالداً .

العاصفة

•

وبعد أيام دعاني فارس كرامه إلى تناول العشاء في منزله، فذهبت ونفسي جائعة إلى ذلك الخبز العلوي الذي وضعته السماء بين يدي سلمى، ذلك الخبز الروحي الذي نلتهمه بأفواه أفئدتنا فنزداد جوعاً ، ذلك الخبز السحري الذي ذاق طعمه قيس العربي ودانتي الطلياني وسافو اليونانية فالتهبت أحشاؤهم وذابت قلوبهم ، ذلك الخبز الذي عجنته الآلهة بحلاوة القبل ومرارة الدموع وأعدته مأكلا للنفوس الحساسة المستيقظة لتفرحها بطعمه وتعذبها بتأثيره .

ولما بلغت المنزل وجدت سلمى جالسة على مقعد خشبي في زاوية من الحديقة وقد أسندت رأسها الى عمد شجرة فبانت بثوبها الأبيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان ، فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها جلوس مجوسي متهيب أمام النار المقدسة ، ولما حاولت الكلام وجدت لساني منعقداً وشفتيّ جامدتين فاستأنست بالسكوت ، لأن الشعور العميق غير المتناهي يفقد شيئاً من خاصته المعنوية عندما يتجسم بالألفاظ المحدودة ، ولكنني شعرت بأن سلمى كانت تسمع في

السكينة مناجاة قلبي المتواصلة وتشاهد في عينيّ أشباح نفسي المرتعشة .

وبعد هنيهة خرج فارس كرامه الى الحديقة ومشى نحونا مرحباً بي كعادته باسطاً يده إليّ كأنه يريد أن يبارك بهـا ذلك السر الخفي الذي يربط روحي بروح ابنته ، ثم قال مبتسماً : هلمّا يا ولديّ الى العشاء فالطعام ينتظرنا . فقمنـا وتبعناه وسلمى تنظر إلي من وراء أجفان مكحولة بالرقـة والانعطاف كأن لفظه «يا ولديّ» قد أيقظت في داخلها شعوراً جديداً عذباً يكتنف محبتها لي مثلما تحتضن الأم طفلها .

جلسنا الى المائدة نأكل ونشرب ونتحدث — جلسنا في تلك الغرفة نتلذذ بألوان الطعام الشهية وأنواع الخمور المعتقـة وأرواحنا تسبح على غير معرفة منا في عالم بعيد عن هـذا العالم وتحلم بآتي المستقبل وتتأهب للوقوف أمام مخاوفه وأهواله . ثلاثة أشخاص تختلف افكارهم باختلاف مقاصدهم من الحياة وتتفق سرائرهم باتفاق قلوبهم بالمودة والمحبـة ، ثلاثة من الضعفاء الأبرياء يشعرون كثيراً ويعرفون قليلا . وهذه هي المأساة المسلتبة على مسرح النفس . شيخ جليـل شريف يحب ابنته ولا يحفـل بغير سعادتها — وصبية في العشرين من عمرها ترى المستقبل قريباً بعيداً وتحدق اليه لترى ما يخبىء لها من الغبطة والشقاء — وفتى كثير الأحلام والهواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلها يحرك جناحيـه ليطير سابحاً في فضاء المحبة والمعرفة ولكنـه لا يستطيع

النهوض لضعفه . ثلاثة جالسون حول مائدة انيقة في منزل منفرد عن المدينة تخيم عليه سكينة الدجى وتحدق اليه عيون السماء ، ثلاثة يأكلون ويشربون وفي اعماق صحونهم وكؤوسهم قد اخفى القدر المرارة والاشواك .

ولم نلته من العشاء حتى دخلت علينا احدى الخادمات وخاطبت فارس كرامه قائلة :في الباب رجل يطلب مقابلتك يا سيدي .

فسألها : من هو هذا الرجل ؟ فأجابت : اظنه خادم المطران يا سيدي . فسكت دقيقـــة وحدق إلى عيني ابنته نظير نبي ينظر الى وجه السماء ليرى ما تخبئه من الأسرار ، ثم التفت نحو الخادمة وقال : دعيه يدخل .

فعادت الخادمة ، وبعد هنيهة ظهر رجل بأثواب مزركشة وشارب معقوف الطرفـــين ، فسلم منحنيا وخاطب فارس كرامه قائلا : قد بعثني سيادة المطران بمركبته الخصوصية لاطلب اليك ان تتكرم بالذهاب اليه ، فهو يريد أن يباحثك بأمور ذات أهمية .

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه واحتجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير ، ثم اقترب مني وقال بصوت تساوره الرقـــة والحلاوة : أرجو أن اعود والقاك ههنا ، فسلمى ستجد بك مؤنسا يبعد بأحاديثه وحشة الليل ، ويزيل بأنغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد . ثم التفت نحو ابنته وزاد مبتسماً : اليس كذلك يا سلمى ؟

فحنت الصبية رأسها وقد توردت وجنتاها قليلاً ، وبصوت يضارع نغمة الناي رقة قالت : سوف اجهد النفس لكي أجعل ضيفنا مسروراً يا والدي .

وخرج الشيخ مصحوباً بخادم المطران وظلت سلمى واقفة تنظر من النافذة نحو الطريق حتى اختفت المركبة عن بصرها وراء ستائر الظلام واضمحل ارتجاج الدواليب بتباعد المسافة وتشرب السكون حرتقة سنابك الخيل ، ثم جلست قبالتي على مقعد موشى بنسيج من الحرير الأخضر فبانت بأثوابها الناصعة كزنبقة لوت قامتها نسمات الصباح على بساط من الأعشاب .

كذا شاءت السماء فخلوت بسلمى ليلاً في منزل منفرد تخفره الأشجار ، وتغمره السكينة ، وتسير في جوانبه أخيلة الحب والطهر والجمال .

ومرت دقائق وكلانا صامت حائر مفكر يترقب الآخر ليبدأ بالكلام . ولكن هل هو الكلام الذي يحدث التفاهم بين الأرواح المتحابة ؟ هل هي الأصوات والمقاطع الخارجة من الشفاه والألسنة التي تقرب بين القلوب والعقول ؟ أفلا يوجد شيء أسمى مما تلده الأفواه وأطهر مما تهتز به أوتار الحناجر ؟ أليست هي السكينة التي تحمل شعاع النفس إلى النفس ، وتنقل همس القلب إلى القلب ؟ أليست هي السكينة التي تفصلنا عن ذواتنا فنسبح في فضاء الروح غير المحدود مقتربين من الملا الاعلى ، شاعرين بأن أجسادنا لا تفوق

السجون الضيقة ، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد ؟

ونظرت سلمى إلي وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثم قالت بهدوء سحري : تعال نخرج إلى الحديقة ونجلس بين الأشجار لنرى القمر طالعاً من وراء الجبل .

فوقفت مطيعاً وقلت ممانعاً : أليس الأفضل أن نبقى ههنا يا سلمى حتى يطلع القمر وينير الحديقة ؟ أما الآن فالظلام يحجب الأشجار والأزهار فلا نستطيع أن نرى شيئاً . فأجابت : إذا حجب الظلام الأشجار والرياحين عن العين فالظلام لا يحجب الحب عن النفس .

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة ، ثم حوّلت عينيها ونظرت نحو النافذة ، فبقيت أنا صامتاً مفكراً بكلماتها مصوراً لكل مقطع معنى ، راسماً لكل معنى حقيقة ، ثم عادت فحدّقت إليّ كأنها ندمت على ما قالت فحاولت استرجاع كلماتها من أذنيّ بسحر أجفانها . ولكن سحر تلك الأجفان لم يسترجع تلك الألفاظ إلا ليعيدها إلى أعماق صدري أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً وليبقيها هناك ملتصقة بقلبي متموجة مع عواطفي الى آخر الحياة

كل شيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولد من فكر واحد أو من حاسة واحدة في داخل الانسان . كل ما نراه اليوم من أعمال الأجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكراً خفياً في عاقلة رجل أو عاطفة لطيفة في صدر امرأة ... الثورات الهائلة

التي أجرت الدماء كالسواقي وجعلت الحرية تعبد كالآلهة كانت فكراً خيالياً مرتعشاً بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين ألوف من الرجال . والحروب الموجعة التي ثلت العروش وخربت الممالك كانت خاطراً يتمايل في رأس رجل واحد . والتعاليم السامية التي غيرت مسير الحياة البشرية كانت ميلاً شعرياً في نفس رجل واحد منفصل بنبوغه عن محيطه . فكر واحد أقام الأهرام وعاطفة واحدة خربت تروادة وخاطر واحد أوجد مجد الإسلام وكلمة واحدة أحرقت مكتبة الاسكندرية .

فكر واحد يجيئك في سكينة الليل يسير بك إلى المجد أو إلى الجنون . نظرة واحدة من أطراف أجفان امرأة تجعلك أسعد الناس أو أتعسهم . كلمة واحدة تخرج من بين شفتي رجل تصيرك غنياً بعد الفقر أو فقيراً بعد الغنى ... كلمة واحدة لفظتها سلمى كرامه في تلك الليلة الهادئة أوقفتني بين ماضيّ ومستقبلي وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات الفضاء . كلمة واحدة معنوية قد أيقظتني من سبات الحداثة والخلو وسارت بأيامي على طريق جديدة إلى مسارح الحب حيث الحياة والموت .

خرجنا إلى الحديقة وسرنا بين الأشجار شاعرين بأصابع النسيم الخفية تلامس وجهينا وقامات الأزهار والأعشاب اللدنة تتمايل بين أقدامنا ، حتى إذا ما بلغنا شجرة الياسمين جلسنا صامتين على ذلك المقعد الخشبي نسمع تنفس الطبيعة

النائمة ونكشف بحلاوة التنهد خفايا صدرينا أمام عيون السماء الناظرة الينا من وراء ازرقاق السماء.

وطلع القمر إذ ذاك من وراء صنّين وغمر بنوره تلك الروابي والشواطىء، فظهرت القرى على اكتاف الأودية كأنها قد انبثقت من اللاشيء، وبان لبنان جميعه من تحت تلك الأشعة الفضية كأنه فتى متكىء على ساعده تحت نقاب لطيف يخفي أعضاءه ولا يخفيها.

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي قد اضمحلت حقيقته بذهاب داود وسليمان والأنبياء مثلما انحجبت جنة عدن بسقوط آدم وحواء، هو لفظة شعرية لا اسم جبل — لفظة ترمز عن عاطفة في النفس وتستحضر إلى الفكر رسوم غابات من الأرز يفوح منها العطر والبخور، وأبراج من النحاس والرخام تتعالى بالمجد والعظمة، واسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول والأودية. وانا قد رأيت لبنان في تلك الليلة مثل فكر شعري خيالي منتصب كالحلم بين اليقظة واليقظة. كذا تتغير الأشياء أمام أعيننا بتغير عواطفنا، وهكذا نتوهم الأشياء متشحة بالسحر والجمال عندما لا يكون السحر والجمال إلا في نفوسنا.

والتفتت إليّ سلمى وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها ومعصميها فبانت كتمثال من العاج نحتته أصابع متعبد لعشتروت ربة الحسن والمحبة: لماذا لا تتكلم؟ لماذا لا تحدثني عن ماضي حياتك؟

فنظرت إلى عينيها المنيرتين ، ومثل أخرس فاجأ النطق شفتيه أجبتها قائلاً : ألم تسمعيني متكلماً مذ جئت إلى هـذا المكان ؟ أو لم تسمعي كل ما قلته مذ خرجنا إلى هذه الحديقة ؟ إن نفسك التي تسمع همس الأزهار وأغاني السكينة تستطيع أن تسمع صراخ روحي وضجيج قلبي .

فحجبت وجهها بيديها ثم قالت بصوت متقطع : قد سمعتك ... نعم سمعتك . سمعت صوتاً صارخاً خارجاً من احشاء الليل وضجة هائلة منبثقة من قلب النهار.

فقلت بسرعـــة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كياني ونسيت كل شيء ولم أعد أعرف سوى سلمى ولا أشعر بغـير وجودها : وأنا قد سمعتك يا سلمى — سمعت نغمة عظيمة محيية جارحة تتموج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها أسس الأرض .

فأغمضت سلمى أجفانها وظهر على شفتيها القرمزيتين خيال ابتسامة محزنة ثم همست قائـــلة : قد عرفت الآن انه يوجد شيء أعلى من السماء وأعمق من البحر وأقوى من الحياة والموت والزمن . وقـد عرفت الآن مـا لم أكن اعرفـه بالأمس ولا أحلم به .

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامـه أعز من الصديق وأقرب من الأخت وأحب من الحبيبة . صارت فكراً سامياً يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحلماً جميلاً يحور نفسي .

ما أجهل الناس الذين يتوهمون ان المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة . ان المحبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بعام ولا بجيل كامل .

ورفعت سلمى رأسها ونظرت نحو الأفق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين بأذيال الفضاء ، ثم قالت : لقد كنت لي بالأمس مثل أخ أقترب منه مطمئنة وأجلس بجانبه في ظلال والدي ، أما الآن فقد شعرت بوجود شيء أقوى وأعذب من العلاقة الأخوية ، قد شعرت بعاطفة غريبة مجردة عن كل علاقة . عاطفة قوية مخيفة لذيذة تملأ قلبي حزناً وفرحاً .

فأجبتها : أليست هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف لمرورها في صدورنا جزءاً من الناموس الكلي الذي يسير القمر حول الأرض ، والأرض حول الشمس ، والشمس وما يحيط بها حول الله ؟

فوضعت يدها على رأسي وغرست أصابعها بشعري وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات الندى على أطراف أوراق النرجس ، ثم قالت : مَنْ مِن البشر يصدق حكايتنا ؟ من منهم يصدق اننا في الساعة التي تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر قد قطعنا العقبات واجتزنا المعابر الكائنة بين الشك واليقين من منهم يعتقد أن نيسان الذي جمعنا لأول مرة هو الشهر الذي أوقفنا في قدس أقداس الحياة ؟

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت على رأسي المنحني ، ولو تخيرت في تلك الدقيقة لما فضلت تيجان الملوك وأكاليل الغار على تلك اليد الحريرية المتلاعبة بشعري. ثم أجبتها قائلاً : ان البشر لا يصدقون حكايتنا لأنهم لا يعلمون بأن المحبة هي الزهرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير معاونة الفصول ، ولكن هل هو نيسان الذي جمعنا لأول مرة ؟ وهل هي هذه الساعة التي أوقفتنا في قدس أقداس الحياة ؟ أما جمعت روحينا قبضة الله قبل ان تصيرنا الولادة أسيري الايام والليالي ؟ ان حياة الانسان يا سلمى لا تبتدىء في الرحم كما انها لا تنتهي أمـــام القبر ، وهذا الفضاء الواسع المملوء بأشعة القمر والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعانقـة بالمحبة والنفوس المتضامنة بالتفاهم .

ورفعت سلمى يدها بلطف عن رأسي تاركة بين مغارس الشعر تموجات كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل فيزيدها نمواً وحراكاً ، فأخذت تلك اليد براحتي نظير متعبد يتبرك بلثم المذبح ووضعتها على شفتي الملتهبتين وقبلتها قبلة طويلة عميقة خرساء تذيب بحرارتها كل ما في القلب البشري من الاحســاس وتنبه بعذوبتها كل ما في النفس الالهية من الطهر .

ومرت علينا ساعة كل دقيقة منها عام شغف ومحبة ، تساورنا سكينة الليل وتغمرنا أشعة القمر وتحيط بنا الأشجار والرياحين ، حتى إذا ما بلغنا تلك الحالة التي ينسى فيها

الانسان كل شيء سوى حقيقة الحب سمعنا وقع حوافر وهدير مركبة تقترب منا مسرعة ، فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة وهبطت بنا اليقظة من عالم الاحلام إلى هذا العالم الواقف بحيرة بين الحيرة والشقاء ، فعرفنا ان الوالد الشيخ قد عاد من دار المطران فسرنا بين الاشجار ننتظر وصوله . وبلغت المركبة مدخل الحديقة فترجل فارس كرامه وسار نحونا منحني الرأس بطيء الحركة ، ونظير متعب رازح تحت حمل ثقيل تقدم نحو سلمى ووضع كلتا يديه على كتفيها وحدق الى وجهها طويلاً كأنه يخاف ان تغيب صورتها عن عينيه الضئيلتين ، ثم انسكبت دموعه على وجنتيه المتجعدتين وارتجفت شفتاه بابتسامة محزنة وقال بصوت مخنوق : عما قريب يا سلمى ، عما قريب تخرجين من بين ذراعي والدك إلى ذراعي رجل آخر . عما قريب تسير بك سنة الله من هذا المنزل المنفرد إلى ساحة العالم الواسعة فتصبح هذه الحديقة مشتاقة إلى وطء قدميك ويصير والدك غريباً عنك . لقد لفظ القدر كلمته يا سلمى ، فلتباركك السماء وتحرسك !

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملامحها وجمدت عيناها كأنها رأت شبح الموت منتصباً أمامها ، ثم شهقت وتململت متوجعة كعصفور رماه الصياد فهبط على الحضيض مرتجفاً بآلامه ، وبصوت تقطعه الغصات العميقة صرخت قائلة : ماذا تقول ؟ ماذا تعني ؟ إلى أين تريد أن تبعث بي ؟ .

ثم شخصت به كأنها تريد أن تزيل بنظراتها الغلاف عن مخبآت صدره . وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون الشبيه بصراخ القبور قالت متأوهة : قد فهمت الآن ... قد عرفت كل شيء ... ان المطران قد فرغ من حبك قضبان القفص الذي أعده لهذا الطائر المكسور الجناحين ، فهل هذه هي إرادتك يا والدي ؟ .

فلم يجبها بغير التنهدات العميقة ، ثم أدخلها الدار وأشعة الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة ، فبقيت أنا واقفاً بين الأشجار والحيرة تتلاعب بعواطفي مثلما تتلاعب العواصف بأوراق الخريف ، ثم تبعتها الى القاعة . وكيلا أظهر بمظهر طفيلي يميل الى استطلاع الخصوصيات أخذت يد الشيخ مودعاً ونظرت الى سلمى نظرة غريق تلف نحو نجم لامع في قبة الفلك ، ثم خرجت دون ان يشعرا بخروجي ، ولكنني ما بلغت أطراف الحديقة حتى سمعت صوت الشيخ منادياً،فالتفت واذا به يتبعني ، فعدت الى لقائه ،ولما دنوت منه أمسك بيدي وقال بصوت مرتعش : سامحني يا ابني فقد جعلت ختام ليلتك مكتنفاً بالدموع،ولكنك سوف تجيء الي دائماً،أليس كذلك؟ ألا تزورني عندما يصير هذا المكان خالياً إلا من الشيخوخة الحزينة؟ان الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما ان الصباح لا يلتقي بالمساء ، أما أنت فسوف تجيء إلي لتذكرني بأيام الصبا التي صرفتها بقرب أبيك وتعيد على مسمعي أخبار

الحياة التي لم تعد تحسبني من أبنائها ، أليس كذلك ؟ ألا تزورني عندما تذهب سلمى وأصبح وحيداً منفرداً في هذا المنزل البعيد عن المنازل ؟

لفظ الكلمات الأخيرة بصوت منخفض متقطع ، ولما أخذت يده وهززتها صامتاً أحسست بقطرات من الدموع السخينة قد تساقطت على يدي من جفانه ، فارتعشت نفسي في داخلي وشعرت نحوه بعاطفة بنوية عذبة محزنة تتمايل بين ضلوعي وتتصاعد كاللهاث الى شفتيّ ثم تعود كالغصات الى أعماق قلبي . ولما رفعت رأسي ورأى ان دموعه قد استدرت الدموع من أجفاني انحنى قليلاً ولمس بشفتيه المرتجفتين أعلى جبهتي ثم قال محولاً وجهه نحو باب المنزل : مساء الخير ... مساء الخير يا ابني .

ان دمعة واحدة تتلمع على وجنة شيخ متجعدة لهي أشد تأثيراً في النفس من كل ما تهرقه أجفان الفتيان .

ان دموع الشباب الغزيرة هي مما يفيض من جوانب القلوب المترعة ، اما دموع الشيوخ فهي فضلات العمر تنسكب من الأحداق ، هي بقية الحياة في الأجساد الواهنة . الدموع في أجفان الشبيبة كقطرات الندى على اوراق الوردة ،أما الدموع على وجنة الشيخوخة فأشبه بأوراق الخريف المصفرة التي تنثرها الرياح وتذريها عندما يقترب شتاء الحياة .

واختفى فارس كرامة وراء مصراعي الباب وخرجت أنا

من تلك الحديقة وصوت سلمى يتموج في أذنيّ ، وجمالها يسير كالخيال أمام عينيَّ ، ودموع والدها تجف ببطء على يديّ . خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس ، ولكن حواء هذا القلب لم تكن بجانبي لتجعل العالم كله فردوساً . خرجت شاعراً بأن تلك الليلة التي ولدت فيها ثانية هي الليلة التي لمحت فيها وجه الموت لأول مرة .

كذا تحيي الشمس الحقول بحرارتها ، وبحرارتها تميتها .

بحيرة النـــار

●

كل ما يفعله الانسان سرّاً في ظلمة الليـــل يظهره الانسان علناً في نور النهار . الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة منا حديثاً عمومياً ، والأعمال التي نحاول اليوم إخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غـــداً وتنتصب في منعطفات الشوارع .

كذا أعلنت أشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامه ، وهكذا حملت دقائق الأثير أقواله وأحاديثه إلى احياء المدينة حتى بلغت مسمعي .

مـــا طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامه في تلك الليلة المقمرة ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين أو يخابره بأمور الأرامل والأيتام ، بـــل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن اخيه منصور بك غالب .

كان فارس كرامه رجلاً غنياً ولم يكن له وارث سوى ابنته سلمى ، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه ، لا

لجمال وجهها ونبالة روحها بل لأنها غنية موسرة تكفل بأموالها العائلة مستقبل منصور بك وتساعده بأملاكها الواسعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصة والاشراف .

ان رؤساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم من المجد والسؤدد بل يفعلون كل ما في وسعهم ليجعلوا أنسباءهم في مقدمة الشعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله . ان مجد الأمير ينتقل بالارث إلى ابنه البكر بعد موته ، أما مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى إلى الأخوة وأبناء الاخوة في حياته . وهكذا يصبح الأسقف المسيحي والامام المسلم والكاهن البرهمي كأفاعي البحر التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتمتص دماءها بأفواه عديدة .

عندما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يجبه ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة . وأي والد لا يشق عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك ؟ أي رجل لا ترتعش أعماق نفسه بالغصات عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التي لاعبها طفلة وهذبها صبية ورافقها امرأة ؟ ان كآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع فرحهما بزواج الابن ، لأن هذا يكسب العائلة عضواً جديداً أما ذاك فيسلبها عضواً قديماً عزيزاً – أجاب الشيخ طلب المطران مضطراً وانحنى أمام مشيئته قهراً عما في داخل نفسه من الممانعة ، وكان قد اجتمع بابن أخيه منصور بك وسمع الناس يتحدثون عنه

فعرف خشونته وطمعه وانحطاط أخلاقه ، ولكن أي مسيحي يقدر أن يقاوم أسقفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين ، أي رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظل كريماً بين الناس ؟ أتعاند العين سهماً ولا تفقأ أو تناضل اليد سيفاً ولا تقطع ؟ وهب أن ذلك الشيخ كان قادراً على مخالفة المطران بولس والوقوف أمام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته في مأمن من الظنون والتآويل ،وهل يظل اسمها نقيا من أوساخ الشفاه والألسنة ؟ أو ليست جميع العناقيد العالية حامضة في شرع بنات آوى ؟

هكذا قبض القـــدر على سلمى كرامه وقادها عبدة ذليلة في موكب النساء الشرقيات التاعسات ، وهكذا سقطت تلك الروح النبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لأول مرة على أجنحة الحب البيضاء في فضاء تملأه أشعة القمر وتعطره رائحـــة الازاهر .

إن أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مجلبة لشقاء البنين تلك الخزائن الواسعة التي يملأهـــا نشاط الوالد وحرص الأم تنقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة . ذلك الإله العظيم الذي يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب شيطاناً مخيفاً يعذب النفوس ويميت القلوب . وسلمى كرامه هي كالكثيرات من بنات جنسها اللواتي يذهبن ضحية ثروة الوالد وأماني العريس . فلو لم يكن فارس كرامه رجلا غنياً لكانت سلمى اليوم حية تفرح مثلنا بنور الشمس .

مرّ اسبوع وحب سلمى يجالسني في المساء منشداً على مسمعي اغاني السعادة وينبهني عند الفجر ليريني معاني الحياة وأسرار الكيان. حبّ علوي لا يعرف الحسد لأنه غني، ولا يوجع الجسد لأنه في داخل الروح . ميل قوي يغمر النفس بالقناعة . مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكتفاء . عاطفة تولد الشوق ولكنها لا تثيره . فتون جعلني أرى الأرض نعيماً والعمر حلماً جميلا . فكنت أسير صباحاً في الحقول وأرى في يقظة الطبيعة رمز الخلود ، وأجلس على شاطىء البحر وأسمع من أمواجه أغاني الأبدية ، وأمشي في شوارع المدينة وأجد في طلعات العابرين وحركات المشتغلين محاسن الحياة وبهجة العمران .

تلك أيام مضت كالأشباح واضمحلت كالضباب ولم يبق لي منها سوى الذكرى الأليمة ، فالعين التي كنت أرى بها جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تحدق الى غير غضب العواصف ويأس الشتاء . والأذن التي كنت أسمع بها أغنية الأمواج لم تعد تصغي لغير أنة الأعماق وعويل الهاوية. والنفس التي كانت تقف متهيبة أمام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد تشعر بغير شقاء الفقر وتعاسة الساقطين . فما أحلى أيام الحب وما أعذب أحلامها وما أمرّ ليالي الحزن وما أكثر مخاوفها !

وفي نهاية الأسبوع وقد سكرت نفسي بخمرة عواطفي سرت مساء إلى منزل سلمى كرامه، ذلك الهيكل الذي أقامه الجمال

وقدسه الحب لتسجد فيه النفس مصلية ويركع القلب خاشعاً ، ولما بلغته ودخلت الى تلك الحديقة الهادئة أحسست بوجود قوة تستهويني وتستميلني وتبعدني عن هذا العالم وتدنيني ببطء إلى عالم سحري خال من العراك والجهاد ، ومثل متصوف جذبته السماء إلى مسارح الرؤيا وجدتني سائراً بين تلك الأشجار المحتبكة والزهور المتعانقة ، حتى إذا مـــا اقتربت من باب الدار التفت وإذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة الياسمين حيث جلسنا منذ أسبوع في تلك الليلة التي اختارتها الآلهة من بين الليالي وجعلتها بدء سعادتي وشقائي ، فدنوت منها صامتاً فلم تتحرك ولم تتكلم كأنها علمت بقدومي قبل قدومي ولما جلست بجانبها حدقت إلى عينيّ دقيقة وتنهدت تنهدة طويلة عميقة ثم عادت فنظرت الى الشفق البعيد حيث تعبث أوائل الليل بأواخر النهار . وبعد هنيهة مملوءة بتلك السكينة السحرية التي تضم نفوسنا الى مواكب الارواح غير المنظورة ، حولت سلمى وجههـــا نحوي وأخذت يدي بيد مرتعشة باردة وبصوت يشابه تأوه جائع لا يقوى على الكلام قالت :

انظر الى وجهي يا صديقي ، انظر الى وجهي جيداً وتأمله طويلا واقرأ فيـــه كل ما تريد ان تفهمه مني بالكلام ... انظر الى وجهي يا حبيبي ... أنظر جيداً يا أخي .

فنظرت إلى وجهها ، نظرت طويلاً ، فرأيت تلك الاجفان التي كانت منـــذ أيام قليلة تبتسم كالشفاه وتتحرك كأجنحـــة

الشحرور قد غارت وجمدت واكتحلت بخيالات التوجع والألم. رأيت تلك البشرة التي كانت بالأمس مثل ثنايا الزنبقة البيضاء الفرحة بقبلات الشمس، قد اصفرت وذبلت وتبرقعت بنقاب القنوط. رايت الشفتين اللتين كانتا كزهرة اقاح تسيل عليها الحلاوة قد يبستا وصارتا كوردتين مرتجفتين أبقاهما الخريف على طرف الغصن. رأيت العنق الذي كان مرفوعاً كعمود العاج قد انحنى الى الأمام كأنه لم يعد قادراً على حمل ما يجول في تلافيف الرأس.

رأيت هذه الانقلابات الموجعة في ملامح سلمى، رأيتها جميعها ولكنها لم تكن في نظري الا كسحابة رقيقة توشح القمر فتزيد منظره حسناً وهيبة. ان الملامح التي تبيح أسرار الذات المعنوية تكسب الوجه جمالا وملاحة مهما كانت تلك الأسرار موجعة وأليمة. اما الوجوه التي لا تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة مهما كانت متناسقة الخطوط متناسبة الاعضاء. إن الكؤوس لا تستميل شفاهنا حتى يشف بلورها عن لون الخمر. فسلمى كرامه كانت في عشية ذلك النهار مثل كأس طافحة من خمرة علوية تمتزج بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس. كانت تمثل على غير معرفة منها حياة المرأة الشرقية التي لا تغادر منزل والدها المحبوب إلا لتضع عنقها تحت نير زوجها الخشن ... ولا تترك ذراعي أمها الرؤوف إلا لتعيش في عبودية والدة زوجها القاسية.

وبقيت محدقـــاً الى وجه سلمى مصغياً لأنفاسها المتقطعة صامتاً، مفكراً شاعراً متألماً معها ولها ، حتى أحسست ان الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحل ولم أعد أرى سوى عينين كبيرتين محدقتين الى اعماقي ، ولا أشعر بغير يد باردة مرتعشة تضم يدي . ولم أفق من هذه الغيبوبة حتى سمعت سلمى تقول بهدوء: تعال نتحدث الآن يا صديقي . تعال نحاول تصوير المستقبل قبل ان يحمل علينا بمخاوفه واهواله . لقد ذهب والدي الى منزل الرجل الذي سيكون رفيقاً لي حتى القبر . قد ذهب الرجل الذي اختارته السماء سبباً لوجودي ليلتقي الرجل الذي انتقته الأرض سيداً على أيامي الآتية . ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذي رافق شبيبتي بالشاب الذي سيرافق ما بقي لي من السنين ، وفي هذه الليلة يتفق الوالد والخطيب على يوم القران الذي سيكون قريباً مهما جعلاه بعيداً ، فما أغرب هذه الساعة وما أشد تأثيرها ! في مثل هذه الليلة من الأسبوع الغابر . وفي ظلال هذه الياسمينة قد عانق الحب روحي لأول مرة، بينما كان القدر يخط أول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب . وفي هذه الساعة وقد جلس والدي وخطيبي ليضفرا إكليل زواجي ، أراك جالساً بجانبي واشعر بنفسك متموجة حولي كطائر ظامىء يحوم مرفرفـــاً فوق ينبوع ماء يخفره ثعبان جائع مخيف ، فما اعظم هذه الليلة وما اعمق اسرارها!

فأجبتها وقد تخيلت القنوط شبحاً مظلماً قابضا على عنق حبنا ليميته في طفوليته : سيظل هذا الطائر حائماً مرفرفاً فوق الينبوع حتى يضنيه العطش فيرديه او يقبض عليه الثعبان المخيف فيمزقه ويلتهمه .

فقالت متأثرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضية : لا ، لا يا صديقي ، فليبق هذا الطائر حياً ، ليبق هذا البلبل مغرداً حتى المساء ، حتى ينتهي الربيع حتى ينتهي العالم ، حتى تنتهي الدهور . لا تخرسه لأن صوته يحييني ، ولا توقف جناحيه لأن حفيفهما يزيل الضباب عن قلبي .

فهمست متنهداً : الظمأ يقتله يا سلمى والخوف يميته .

فأجابت والكلام يتدفق بسرعة من بين شفتيهـــا المرتعشتين : ان ظمأ الروح اعظم من ارتواء المادة ، وخوف النفس أحب من طمأنينة الجسد .. ولكن اسمع يا حبيبي ، اسمعني جيداً ، انا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا أعرف عنها شيئاً . أنا مثل عمياء تتلمس بيدهـــا الجدران مخافة السقوط . أنا جارية أنزلني مال والدي الى ساحة النخاسين فابتاعني رجل من بين الرجال . انا لا احب هذا الرجل لأنني اجهله ، وانت تعلم ان المحبة والجهالة لا تلتقيان ، ولكنني سوف أتعلم محبته . سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيداً . سوف أهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوي . أما أنت فلم تزل في ربيع العمر ، أمامك الحياة طريقاً واسعة

مفروشة بالأزهار والرياحين . سوف تخرج إلى ساحة العالم حاملاً قلبك مشعلاً متقداً . سوف تفكر بحرية وبحرية تتكلم وتفعل سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لأنك رجل . سوف تعيش سيداً ، لأن فاقة والدك لا تجعلك عبداً، وأمواله لا تنزل بك الى سوق النخاسين حيث تباع البنات وتشرى . سوف تقترن بالصبية التي تختارها نفسك من بين الصبايا فتسكنها صدرك قبل أن تسكنها منزلك ، وتشاركها بأفكارك قبل أن تساهمها الأيام والليالي .

وسكتت دقيقة كيما تسترجع أنفاسها ، ثم زادت بصوت تتابعه الغصات : ولكن أهمنا تفرقنا سبل الحيــاة لتذهب بك إلى أمجاد الرجل وتسير بي إلى واجبات المرأة ؟ أهكذا ينقضي الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة ؟ أهكذا تبتلــع اللجة نغمــة الشحرور وتنثر الرياح أوراق الوردة وتسحق الأقدام كأس الخمر ؟ أباطلاً أوقفتنا تلك الليلة أمام وجــه القمر وباطلاً ضمنا الروح في ظلال هذه الياسمينة؟ هل تسرعنا بالصعود نحو الكواكب فكلت أجنحتنا وهبطت بنــا إلى الهاوية ؟ هل فاجأنا الحب نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنــا ، أم هيجت أنفاسنا نسمات الليل فانقلبت ريحاً شديدة لتمزقنا وتجرفنا كالغبار إلى أعماق الوادي ؟ لم نخالف وصية ولم نذق ثمراً فكيف نخرج من هذه الجنة ؟ لم نتآمر ولم نتمرد فلماذا نهبط الى الجحيم ! لا لا وألف لا ولا. إن الدقائق التي جمعتنا هي أعظم من الأجيال ، والشعاع الذي أنار نفسينا هو أقوى

من الظلام ، فان فرقتنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب فالأمواج تجمعنا على ذلك الشاطىء الهادىء ، وان قتلتنا هذه الحياة فذاك الموت يحيينا .

ان قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحول مع الفصول قلب المرأة ينازع طويلا ولكنه لا يموت . قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه ، فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم ، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور ... والآن قضي الأمر فماذا نفعل ؟ قل لي ماذا نفعل وكيف نفترق ومتى نلتقي ؟ هل نحسب الحب ضيفاً غريباً أتى به المساء وأبعده الصباح ؟ أنحسب هذه العاطفة النفسية حلماً أبانه الكرى ثم أخفته اليقظة ؟ أنحسب هذا الأسبوع ساعة سكر ما لبثت ان قضت بالصحو والانتباه ؟.. ارفع رأسك لأرى عينيك يا حبيبي افتح شفتيك لأسمع صوتك . تكلم ، اخبرني ، حدثني ، هل تذكرني بعد أن تغرق العاصفة سفينتي أيامنا ؟ هل تسمع حفيف أجنحتي في سكينة الليل ؟ هل تشعر بأنفاسي متموجة على وجهك وعنقك ؟ هل تصغي لتنهداتي متصاعدة بالتوجع منخفضة بالغصات ؟ وهل ترى خيالي قادماً مع خيالات الظلام مضمحلا مع ضباب الصباح ؟ قل لي يا حبيبي ، قل لي ماذا تكون لي بعد ان كنت نوراً لعيني ونغمة لأذني وجناحاً لروحي ، ماذا تكون ؟

فأجبتها وحبات قلبي تذوب في عيني : سأكون لك يا سلمى مثلما تريدينني ان أكون .

فقالت : أريدك أن تحبني . أريدك أن تحبني إلى نهاية أيامي . أريدك أن تحبني مثلما يحب الشاعر أفكاره المحزنة . أريدك ان تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماء هادىء رأى فيه خيال وجهه قبل ان يشرب من مائه . وأريدك أن تذكرني مثلما تذكر الأم جنيناً مات في أحشائها قبل ان يرى النور . وأريدك أن تفكر بي مثلما يفكر الملك الرؤوف بسجين مات قبل أن يبلغه عفوه . أريدك أن تكون لي أخاً وصديقاً ورفيقاً . أريدك أن تزور والدي في وحدته وتعزيه في انفراده ، لأنني عما قريب سأتركه وأصير غريبة عنه .

فأجبتها : سأفعل كل ذلك يا سلمى . سوف أجعل روحي غلافاً لروحك ، وقلبي بيتاً لجمالك ، وصدري قبراً لأحزانك . سوف أحبك يا سلمى محبة الحقول للربيع . سوف أحيا بك حياة الأزاهر بحرارة الشمس . سوف أترنم باسمك مثلما يترنم الوادي بصدى رنين الأجراس المتمايلة فوق كنائس القرى . سوف أصغي لأحاديث نفسك مثلما تصغي الشواطىء لحكاية الأمواج ... سأذكرك يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش وطنه المحبوب ، والفقير الجائع مائدة الطعام الشهية . والملك المخلوع ايام عزه ومجده ، والأسير الكئيب ساعات الحرية والطمأنينة . سوف أفكر بك مثلما يفكر الزارع بأغمار

السنابل وغـلة البيادر ، والراعي الصالح بالمروج الخضراء والمناهل العذبة .

كنت أتكلم وسلمى تنظر الى أعماق الليل وتتأوه بين الآونة والأخرى، ونبضات قلبها تتسارع وتتماهل كأنها أمواج بحر بين صعود وهبوط . ثم قالت : غداً تصير الحقيقة خيالاً واليقظة حلمـاً ، فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال ويرتوي الظمآن من جداول الأحلام ؟

فأجبتها قائلا : غداً يسير بك القدر إلى أحضان العـائلة المملوءة بالراحة والهدوء ، ويسير بي إلى ساحة العـالم حيث الجهاد والقتال . أنت الى منزل رجل يسعد بجمالك وطهر نفسك . وأنا إلى مكامن أيام تعذبني بأحزانها وتخيفني بأشباحها . أنت إلى الحياة وأنا إلى النزع . أنت إلى الأنس والالفة وأنا إلى الوحشة والانفراد . ولكنني سأرفع في وادي ظل الموت تمثالاً للحب وأعبده . سأتخذ الحب سميراً وأسمعه منشداً وأشربه خمراً وألبسه ثوباً . عند الفجر سينبهني الحب من رقادي ويسير أمامي إلى البرية البعيدة . وعند الظهيرة سيقودني الى ظل الأشجار فأربض مع العصافير المحتمية من حرارة الشمس . وفي المساء سيوقفني امام المغرب ويسمعني نغمة وداع الطبيعة للنور ويريني أشباح السكينة سابحة في الفضاء . وفي الليل سيعانقني فأنام حالما بالعوالم العلوية حيث تقطن أرواح العشاق والشعراء . وفي الربيع سأمشي والحب

جنباً لجنب ، مترنمين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار اقدام الحياة المخططة بالبنفسج والاقحوان ، شاربين بقايا الامطار بكؤوس النرجس والزنبق . وفي الصيف سأتكىء والحب ساندين رأسينا إلى أغمار القش مفترشين لاعشاب ملتحفين السماء ساهرين مع القمر والنجوم . وفي الخريف سأذهب والحب إلى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظرين إلى الاشجار وهي تخلع أثوابها المذهبة متأملين بأسراب الطيور الراحلة إلى الساحل . وفي الشتاء سأجلس والحب بقرب الموقد تالين حكايات الاجيال مرددين أخبار الامم والشعوب . وفي أيام الشبيبة سيكون لي الحب مهذباً ، وفي الكهولة عضداً ، وفي الشيخوخة مؤنساً . سيظل الحب معي يا سلمى إلى نهاية العمر ، إلى ان يجيء الموت ، إلى أن تجمعني بك قبضة الله .

كانت الالفاظ تتصاعد مسرعة من أعماق نفسي كأنها شعلات من نار تنمو وتتطاير ثم تتبدد وتضمحل في زوايا تلك الحديقة ، وكانت سلمى مصغية والدموع تنهمر من عينيها كأن أجفانها شفاه تجيبني بالدموع على الكلام .

ان الذين لم يهبهم الحب أجنحة لا يستطيعون أن يطيروا إلى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السحري الذي طافت فيه روحي وروح سلمى في تلك الساعة المحزنة بأفراحها المفرحة بأوجاعها . ان الذين لم يتخذهم الحب أتباعاً لا يسمعون الحب متكلماً ، فهذه الحكاية لم تكتب لهم ؛ فهم وأن فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم ان يروا ما

يسيل بين سطورها من الأشباح والأخيلة التي لا تلبس الحبر ثوباً ولا تتخذ الورق مسكناً . لكن أي بشريّ لم يرشف من خمرة الحب في احدى كاساته ؟ أية نفس لم تقف متهيبة في ذلك الهيكل المنير المرصوف بحبات القلوب المسقوف بالأسرار والاحلام والعواطف ؟ أي زهرة لم يسكب الصباح قطرة من الندى بين أوراقها ؟ وأي ساقية تضل طريقها ولا تذهب إلى البحر ؟

ورفعت سلمى إذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة بالكواكب ومدت يديها إلى الامام وكبرت عيناها وارتجفت شفتاها وظهر على وجهها المصفر كل ما في نفس المرأة المظلومة من الشكوى والقنوط والألم ، ثم صرخت قائلة : ماذا فعلت المرأة يا رب فاستحقت غضبك ؟ ماذا أتت من الذنوب ليتبعها سخطك إلى آخر الدهور ؟ هل اقترفت جرماً لا نهاية لفظاعته ليكون عقابك لها بغير نهاية ؟ أنت قوي يا رب وهي ضعيفة فلماذا تبيدها بالأوجاع ؟ انت عظيم وهي تدب حول عرشك فلماذا تسحقها بقدميك ؟ أنت عاصفة شديدة وهي كالغبار أمام وجهك فلماذا تذريها على الثلوج ؟ أنت جبار وهي بائسة فلماذا تحاربها ؟ أنت بصير عليم وهي تائهة عمياء فلماذا تهلكها ؟ أنت توجدها بالمحبة فكيف بالمحبة تفنيها ؟ بيمينك ترفعها اليك وبشمالك تدفعها إلى الهاوية وهي جاهلة لاتدري أنّى ترفعها وكيف تدفعها ؟ في فمها تنفخ نسمة الحياة وفي قلبها تزرع بذور الموت . على سبل السعادة تسيرها راجلة

ثم تبعث الشقاء فارساً ليصطادها . في حنجرتها تبث نغمة الفرح ثم تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة بأصابعك الخفية تمنطق باللذة أوجاعها وبأصابعك الظاهرة ترسم هالات الاوجـــاع حول ملذاتها . في مضجعها تخفي الراحة والسلامة وبجانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب . بإرادتك تحيي ميولها. ومن ميولها تتولد عيوبها وزلاتها . بمشيئتك تريها محاسن مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب محبتها للحسن مجاعة مهلكـة . بشريعتك تزوج روحها من جسد جميل وبقضائك تجعل جسدها بعلا للضعف والهوان . أنت تسقيها الحياة بكأس الموت والموت بكأس الحياة . انت تطهرها بدموعها وبدموعها تذيبها . أنت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأ حفنة الرجل من حبات صدرها . أنت أنت يا رب قد فتحت عيني بالمحبة وبالمحبة أعميتني . أنت قبلتني بشفتيك وبيدك القوية صفعتني . انت زرعت في قلبي وردة بيضاء وحـــول هذه الوردة أنبتّ الاشواك والحسك . أنت أوثقت حاضري بروح فتى أحبه وبجسد رجل لا أعرفـه . قيدت أيامي فساعدني لأكون قوية في هـــذا الصراع المميت واسعفني لأبقى أمينة وطاهرة حتى الموت . . . لتكن مشيئتك يا رب . ليكن اسمك مباركاً إلى النهاية .

وسكتت سلمى وظلت ملامحها تتكـــلم ، ثم حنت رأسها وأرخت ذراعيها وانخفض هيكلها كأن القوى الحيوية قد تركتها فبانت لناظري كغصن قصفته العـاصفة وألقته إلى الحضيض

ليجف ويندثر تحت أقدام الدهر . فأخذت يدها المثلجة بيدي الملتهبة وقبلت أصابعها بأجفاني وشفتي ، ولما حاولت تعزيتها بالكلام وجدتني أحرى منها بالتعزية والشفقة ، فبقيت صامتاً حائراً متأملاً شاعراً بتلاعب الدقائق بعواطفي ، مصغياً لأنّة قلبي في داخلي ، خائفاً من نفسي على نفسي .

ولم ينبس أحدنا ببنت شفة في ما بقي من تلك الليلة ، لأن اللوعة إذا عظمت تصير خرساء ، فبقينا ساكتين جامدين كعمودي رخام قبرهما الزلزال في التراب . ولم يعد أحدنا يريد أن يسمع الآخر متكلماً ، لأن خيوط قلبينا قد وهت حتى صار التنهد دون الكلام يقطعها .

انتصف الليل ونمت رهبة السكوت وطلع القمر ناقصاً من وراء صنين وبان بين النجوم كوجه ميت شاحب غارق في المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنعشه . وظهر لبنان كشيخ لوت ظهره الأعوام وأناخت هيكله الأحزان وهجر أجفانه الرقاد فبات يساهر الدجى ويترقب الفجر كملك مخلوع جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره . ان الجبال والأشجار والأنهار تتبدل هيئاتها ومظاهرها بتقلب الحالات والأزمنة مثلما تتغير ملامح وجه الانسان بتغير أفكاره وعواطفه ، فشجرة الحور التي تتعالى في النهار كعروس جميلة يلاعب النسيم أثوابها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو اللاشيء والصخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجبار قوي يهزأ بعاديات الزمن يبدو في الليل كفقير بائس يفترش الثرى

ويلتحف الفضاء . والساقيه التي نراها عند الصباح متلمعة كذوب اللجين ونسمعها مترنمة بأغنية الخلود نخالها في المساء مجرى دموع يتفجر من بين أضلع الوادي ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى . ولبنان الذي ظهر منذ اسبوع بكل مظاهر الجلال والرونق عندما كان القمر بدراً والنفس راضية قد بان في تلك الليلة كئيباً منهوكاً مستوحشاً أمام قمر ضئيل ناقص هائم في عرض السماء وقلب خافق معتل في داخل الصدر .

وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحب واليأس شبحين هائلين، هذا باسط جناحيه فوق رأسينا وذاك قابض بأظافره على عنقينا . هذا يبكي مرتاعاً وذاك يضحك ساخراً . ولما أخذت يد سلمى ووضعتها على شفتي متبركاً دنت مني ولثمت مفرق شعري ، ثم عادت فارتمت على المقعد الخشبي وأطبقت أجفانها وهمست ببطء: اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة.

انفصلت عن سلمى وخرجت من تلك الحديقة شاعراً بنقاب كثيف يوشي مداركي الحسية مثلما يغمر الضباب وجه البحيرة . وسرت وأخيلة الاشجار القائمة على جانبي الطريق تتحرك أمامي كأنها أشباح قد انبثقت من شقوق الأرض لتخيفني ، وأشعة القمر الضعيفة ترتعش بين الغصون كأنها سهام دقيقة تريشها أرواح الجان السابحة بالفضاء نحو صدري ، والسكينة العميقة تخيم علي كأنها أكف سوداء ثقيلة القتها الظلمة على جسدي.

كل ما في الوجود وكل معنى في الحياة وكل سر في النفس

قد صار قبيحاً رهيباً هائلا ، فالنور المعنوي الذي أراني جمال العـــالم وبهجة الكائنات قد انقلب ناراً تحرق كبدي بلهيبها وتستر نفسي بدخانها . والنغمة التي كانت تضم إليها أصوات المخلوقات وتجعلها نشيد علويا قد استحالت في تلك الساعة الى ضجيج أروع من زمجرة لأسد وأعمق من صراخ الهاوية .

بلغت غرفتي وارتميت على فراشي كطائر رماه الصياد فسقط بين السياج والسهم في قلبه . وظلت عاقلتي تراوح بين يقظة مخيفة ونوم مزعج ، وروحي في داخلي تردد في الحالتين كلمات سلمى : أشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .

أمام عرش الموت

●

إنما الزيجة في أيامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولى أمورها الفتيان وآباء الصبايا ، الفتيان يربحون في أكثر المواطن والآباء يخسرون دائماً ، أما الصبايا المتنقلات كالسلع من منزل إلى آخر فتزول بهجتهن ، ونظير الأمتعة العتيقة يصير نصيبهن زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء .

إن المدنية الحاضرة قد أنمت مدارك المرأة قليلا ولكنها أكثرت أوجاعها بتعميم مطامع الرجل . كانت المرأة بالأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة تعسة . كانت بالامس عمياء تسير في نور النهار فأصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل . كانت جميلة بجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة بتفننها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها . فهل يجيء يوم يجتمع في المرأة الجمال بالمعرفة ، والتفنن بالفضيلة ، وضعف الجسد بقوة النفس ؟ انا من القائلين ان الارتقاء الروحي سنة في البشر ، والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعالة فاذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء آخر فلأن العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكامن اللصوص ،

وكهوف الذئاب . ففي هذا الجبل الشبيه بالغيبوبة التي تتقدم اليقظة — في هذا الجبل القابض بكفيه على تراب الاجيال الغابرة وبزور الاجيال الآتية — في هذا الجبل الغريب بميوله وأمانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل . وسلمى كرامه كانت في بيروت رمز المرأة الشرقية العتيدة ، ولكنها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر ، ونظير زهرة اختطفها تيار النهر قد صارت قهراً في موكب الحياة نحو الشقاء .

وتزوج منصور بك غالب من سلمى فسكنا معاً في منزل فخم قائم على شاطىء البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والاغنياء وبقي فارس كرامه وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعي بين أغنامه ومضت أيام العرس وانقضت ليالي الأفراح ، ومر الشهر الذي يدعوه الناس عسلا تاركا وراءه شهور الخل والعلقم مثلما تترك أمجاد الحروب جماجم القتلى في البرية البعيدة ... ان بهرجة الاعراس الشرقية تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسر الى ما وراء الغيوم ثم تهبط بهم هبوط حجر الرحى الى اعماق اليم ، بل هي مثل آثار الأقدام على رمال الشاطىء لا تلبث أن تمحوها الأمواج.

وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف ومحبتي لسلمى تتدرج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسناء إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم نحو

روح أمه الساكنة في الأبدية ، فالصبابة التي كانت تمتلك كليتي قد تحولت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها ، والولع الذي كان يستدر الدموع من عيني قد انقلب ولهاً يستقطر الدم من قلبي ، وأنة الحنين التي كانت تملأ ضلوعي أصبحت صلاة عميقة تقدمها روحي في السكينة أمام السماء مستمدة السعادة لسلمى والغبطة لبعلها والطمأنينة لوالدها ، ولكن باطلاً كنت أشفق وابتهل وأصلي لأن تعاسة سلمى كانت علة في داخل النفس لا يشفيها سوى الموت . أما بعلها فكان من أولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب على كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون بل يطمحون دائماً إلى ما ليس لهم ، وهكذا يظلون معذبين بمطامعهم إلى نهـــاية أيامهم . وباطلاً كنت أرجو الطمأنينة لفارس كرامه لأن صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل على أموالها الطائلة حتى نسيه وهجره بل صار يطلب حتفه توصلا إلى ما بقي من ثروته .

كان منصور بك شبيهاً بعمه المطران بولس غالب ، وكانت أخلاقه كأخلاقه ، ونفسه صورة مصغرة لنفسه ، ولم يكن الفرق بينهما إلا بما يفرق الرياء عن الانحطاط . كان المطران يبلغ أمانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتمياً بالصليب الذهبي المعلق على صدره ، أما ابن أخيه فكان يفعل كل ذلك جهاراً وعنوة . كان المطران يذهب إلى الكنيسة في الصباح ويصرف ما بقي من النهار منتزعاً الأموال من الأرامل

واليتامى وبسطاء القلب ، أما منصور بك فكان يقضي النهار كله متبعاً ملذاته ملاحقاً شهواته في تلك الأزقة المظلمة حيث يختمر الهواء بأنفاس الفساد .

كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ويعظ المؤمنين بما لا يتعظ به ويصرف أيام الأسبوع مشتغلاً بسياسة البلاد ، أما ابن أخيه فكان يصرف جميع أيامه متاجراً بنفوذ عمه بين طالبي الوظائف ومريدي الوجاهة . كان المطران لصاً يسير مختبئاً بستائر الليل ، أمـــا منصور بك فكان محتالاً يمشي بشجاعة في نور النهار .

كذا تبيد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفنى القطعان بين أنياب الذئاب وقواطع الجزارين ، وهكذا تستسلم الامم الشرقية إلى ذوي النفوس المعوجة والأخلاق الفاسدة فتتراجع الى الوراء ثم تهبط الى الحضيض فيمر الدهر ويسحقهـــا بأقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفخار .

وماذا يا ترى يجعلني الآن أشغل هذه الصفحات بالكلام عن أمم يائسة وأنا قد خصصتها لتدوين حكاية امرأة تاعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلمسه الحب بأفراحه حتى صفعه بأحزانه ؟ .. لماذا تراود الدموع أجفاني لذكر شعوب خامـــلة مظلومة وأنا قد وقفت دموعي على ذكرى أيام امرأة ضعيفة لم تعانق الحيـــاة حتى احتضنها الموت ،

ولكن أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمة المظلومة ؟ أليست المرأة المتوجعة بين ميول نفسها وقيود جسدها هي كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها ؟ أو ليست العواطف الخفية التي تذهب بالصبية الجميلة الى ظلمة القبر هي كالعواصف الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب ؟ ان المرأة من الأمة بمنزلة الشعاع من السراج ، وهل يكون شعاع السراج ضئيلا اذا لم يكن زيته شحيحاً ؟

* * *

مضت ايام الخريف وعرت الرياح الأشجار متلاعبة بأوراقها الصفراء مثلما تداعب الأنواء زبد البحر ، وجاء الشتاء باكياً منتحباً وأنا في بيروت ولا رفيق لي سوى أحلام تتصاعد بنفسي تارة فتبلغها الكواكب ، وتنخفض بقلبي طوراً فتلحده بجوف الأرض .

ان النفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتهجر الناس مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى يبرأ او يموت .

فذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامه ، فتركت وحدتي وذهبت لعيادته ماشياً على ممر منفرد بين أشجار الزيتون المتلمعة اوراقها الرصاصية بقطرات المطر ، متنحياً عن الطريق العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينة الفضاء .

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته ملقى على فراشه مضنى الجسم ، شاحب الوجه ، أصفر اللون ، قد غرقت عيناه تحت حاجبيه فبانتا كهوتين عميقتين مظلمتين تجول فيهما أشباح السقم والألم ، فالملامح التي كانت بالأمس عنوان البشاشة والانبساط قد تقلصت واكفهرت واصبحت كصحيفة رمادية متجعدة تكتب عليها العلة سطوراً عريبة ملتبسة . واليدان اللتان كانتا مغلفتين باللطف واللدانة قد نحلتا حتى بدت عظام اصابعهما من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش أمام العاصفة .

ولما دنوت منه سائلاً عن حاله حول وجهه المهزول نحوي وظهر على شفتيه المرتجفتين خيال ابتسامة محزنة ، وبصوت ضعيف خافت خلته آتياً من وراء الجدران قال : اذهب ، اذهب يا ابني الى تلك الغرفة وامسح دموع سلمى وسكن روعها ثم عد بها إلي لتجلس بجانب فراشي . . .

دخلت الغرفة المحاذية فوجدت سلمى منطرحة على مقعد وقد غمرت رأسها بزنديها وغرقت وجهها بالمساند وأمسكت أنفاسها كيلا يسمع والدها نحيبها . فاقتربت منها ببطء ولفظت اسمها بصوت أقرب الى التنهد منه الى الهمس ، فتحركت مضطربة كنائم تراوده الأحلام المخيفة ثم استوت على مقعدها ونظرت إلي بعينين شاخصتين جامدتين كأنها ترى شبحاً في عالم الرؤيا ولا تصدق حقيقة وجودي في ذلك المكان .

وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثيراته السحرية الى تلك الساعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعها بأطراف انامله وقالت متحسرة : أرأيت كيف تبدلت الأيام ؟ أرأيت كيف أضلنا الدهر فسرنا مسرعين الى هذه الكهوف المفزعة ؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة الحب ، وفي هذا المكان يجمعنا الآن الشتاء امام عرش الموت ، فما أبهى ذلك النهار وما أشد ظلمة هذا الليل .

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصات أواخرها ثم عادت فسترت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضي قد تجسدت ووقفت أمامها فلم تشأ ان تراها . فوضعت يدي على شعرها قائلا : تعالي يا سلمى ، تعالي نتصب كالابراج أمام الزوبعة . هلمي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا ، فان صرعنا نموت كالشهداء وان تغلبنا نعيش كالأبطال . . . ان عذاب النفس بثباتها امام المصاعب والمتاعب لهو اشرف من تقهقرها الى حيث الامن والطمأنينة . فالفراشة التي تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هي أسمى من الخلد الذي يعيش براحة وسلامة في نفقه المظلم . والنواة التي لا تحتمل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على شق الأرض ولن تفرح بجمال نيسان . . . هلمي نسر يا سلمى بقدم ثابتة على هذه الطريق الوعرة. رافعين اعيننا نحو الشمس كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصخور ، والافاعي المنسابة بين الاشواك ، فان اوقفنا الخوف في منتصف الطريق

أسمعتنا أشباح الليل صراخ الاستهزاء والسخرية ، وان بلغنا قمة الجبل بشجاعة تترنم معنا ارواح الفضاء بانشودة النصر والاستظهار . . . خففي عنك يا سلمى وجففي دموعك واخفي هذه الكآبة الظاهرة على محياك وقومي نجلس بجانب فراش والدك لان حياته من حياتك وشفاءه بابتسامك .

فنظرت إلي نظرة ملؤها الحنان والرأفة والانعطاف ثم قالت : أتطلب مني الصبر والتجلد وفي عينيك معنى اليأس والقنوط ؟ أيعطي الفقير الجائع خبزه للجائع الفقير؟ أوَ يصف العليل دواء لعليل آخر وهو أحرى بالدواء ؟

ثم وقفت وسارت أمامي منحنية الرأس الى غرفة والدها. جلسنا بقرب مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلف الابتسام وهدوء البال وهو يتكلف الراحة والقوة ، وكل منهما شاعر بلوعة الآخر ، عالم بضعفه ، سامع غصات قلبه ، فكانا مثل قوتين متضارعتين يفني بعضهما بعضاً في السكينة . والد دنف يذوب ضنى لتعاسة ابنته ، وابنة محبة تذبل متوجعة بعلة والدها. نفس راحلة ونفس يائسة تتعانقان أمام الحب والموت ، وأنا بينهما أتحمل ما بي وأقاسي ما بهما. ثلاثة جمعتهم يد القضاء ثم قبضت عليهم بشدة حتى سحقتهم : شيخ يمثل بيتاً قديماً هدمه الطوفان ، وصبية تحاكي زنبقة قطع عنقها حد المنجل ، وفتى يشابه غرسة ضعيفة لوت قامتها الثلوج ، وجميعنا مثل ألعوبة بين أصابع الدهر .

وتحرك الشيخ إذ ذاك بين اللحف ومد يده النحيلة نحو سلمى ، وبصوت أودعه كل ما في قلب الأب من الرقة والرأفة وكل ما في الصدر العليل من السقم والألم قال : ضعي يدك في يدي يا سلمى .

فمدت يدها وألقتها بين أصابعه فضمها بلطف ثم زاد قائلاً : لقد شبعت من السنين يا ولدي ، قد عشت طويلاً وتلذذت بكل ما تثمره الفصول وتمتعت بكل ما تبرزه الأيام والليالي ، قد لاحقت الفراش صبياً وعانقت الحب فتى وجمعت المال كهلاً ، وكنت في جميع هذه الأدوار سعيداً مغتبطاً . فقدت أمك يا سلمى قبل ان تبلغي الثالثة ولكنها أبقتك لي كنزاً ثميناً ، فكنت تنمين بسرعة نمو الهلال وتنعكس على وجهك ملامح أمك مثلما تنعكس أشعة النجوم في حوض ماء هادىء ، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك وأقوالك ظهور الحلى الذهبية من وراء النقاب الرقيق ، فتعزيت بك يا ولدي لأنك كنت مثلها جميلة وحكيمة . . . والآن قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين أجنحة الموت الناعمة ، فتعزي يا ولدي لأنني بقيت لأراك امرأة كاملة ، وافرحي لأنني سأبقى بك حياً بعد موتي . إن ذهابي الآن هو مثل ذهابي غداً او بعده ، لأن ايامنا مثل أوراق الخريف تتساقط وتتبدد امام وجه الشمس فان أسرعت بي الساعات إلى الأبدية فلأنها علمت ان روحي قد اشتاقت الى لقاء أمك.

لفظ الكلمات الأخيرة بنغمة مفعمة بحلاوة الحنين والرجاء ولاحت على وجهه المنقبض أشعة شبيهة بذلك النور الذي ينبثق من أجفان الأطفال ، ثم مد يده بين المساند المحيطة برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة يمنطقها إطار من الذهب قد نعمت حدوده ملامس الأيدي ومحت نقوشه قبل الشفاه ، ثم قال دون ان يحول عينيه عن الرسم : اقتربي ياسلمى ، اقتربي مني يا ولدي لأريك خيال أمك . تعالي وانظري ظلها على صفحة من الورق .

فدنت سلمى ماسحة الدموع من مقلتيها كيلا تحول بين ناظريها والرسم الضئيل ، وبعد ان حدقت اليه طويلا كأنه مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها قربته من شفتيها وقبلته بلهفة مراراً متوالية ثم صرخت قائلة : يا أماه . يا أماه . يا أماه ! ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت فوضعت الرسم على شفتيها المرتعشتين كأنها تريد ان تبث فيه الحياة بأنفاسها الحارة ...

ان أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة « الأم » ، وأجمل مناداة هي : يا أمي . كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة . الأم هي كل شيء في هذه الحياة ، هي التعزية في الحزن ، والرجاء في اليأس ، والقوة في الضعف هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد

أمـــه يفقد صدراً يسند اليه رأسه ويداً تباركه وعينـــاً تحرسه ...

كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الامومة ، فالشمس هي أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورهـــا ولا تغادرها عند المساء إلا بعد ان تنومها على نغمة أمواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي ، وهذه الأرض هي ام للاشجار والأزهار تلدها وترضعها ثم تفطمها . والأشجار والأزهـار تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار الشهية والبزور الحية . وأم كل شيء في الكيان هي الروح الكلية الأزلية الأبديـــة المملوءة بالجمال والمحبة .

وسلمى كرامه لم تكن تعرف امها لأنها ماتت وهي طفلة، وقد شهقت متأثرة عندما رأت رسمها ونادتها : يا أماه ، قسر إرادتها ، لأن لفظة الأم تختبىء في قلوبنا مثلما تختبىء النواة في قلب الأرض ، وتنبثق من بين شفاهنـــا في ساعات الحزن والفرح كما يتصاعـــد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصافي والممطر .

كانت سلمى تحدق الى رسم أمها ثم تقبله بلهفة ثم تلزه إلى صدرها الخفوق ثم تتأوه متنهدة ومع كل تنهدة تفقد جزءاً من قواها ، حتى إذا ما وهت الحياة في جسدها النحيل هـوت وسقطت بجانب سرير أبيها ، فوضع كلتا يديه على رأسهـــا قائلا : قد أريتك يا ولدي شبح أمك على صفحة من الورق ، فاصغي إلي لأسمعك أقوالها .

فرفعت سلمى رأسها مثلما تفعل الفراخ في العش عندما تسمع حفيف أجنحة العصفورة بين القضبان ، ونظرت اليه مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت الى أعين محدقة وآذان واعية .

فقال والدها : كنت طفلة رضيعة عندما فقدت أمك والدها الشيخ فحزنت لفقده وبكت بكاء حكيم متجلد ، ولكنها لم تعد من جانب قبره حتى جلست بجانبي في هذه الغرفة وأخذت يدي براحتيها وقالت : قد مات والدي يا فارس وأنت باق لي وهذه هي تعزيتي . ان القلب بعواطفه المتشعّبة يماثل الارزة بأغصانها المتفرقة ، فإذا ما فقدت شجرة الأرز غصناً قوياً تتألم ولكنها لا تموت بل تحول قواها الحيوية الى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملأ بفروعه الغضة مكان الغصن المقطوع . هذا ما قالته والدتك يا سلمى عندما مات أبوها وهذا ما يجب عليك ان تقوليه عندما يأخذ الموت جسدي إلى راحة القبر وروحي إلى ظل الله .

فأجابت سلمى متفجعة : فقدت أمي والدها فبقيت أنت لها ، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي ؟ مات والدها وهي في ظلال زوج محب فاضل أمين ، مات والدها فبقي لها طفلة تغمر رأسها الصغير بثدييها وتطوق عنقها بذراعيها ، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي ؟ أنت أبي وأمي ورفيق حداثتي ومهذب شبيبتي ، فبمن أستعيض إذا ما ذهبت عني ؟ .

قالت هذا وحولت عينيها الدامعتين نحـــوي وأمسكت بيمينها طرف ثوبي ثم قالت : ليس لي غير هـــذا الصديق يا والدي ولن يبقى لي سواه إذا ما تركتني ، فهل أتعزى به وهو متعذب مثلي ؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير ؟ ان الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها كما ان الحمامة لا تطير بأجنحة مكسورة . هو رفيق لنفسي ولكنني قـــد أثقلت عاتقه بأشجاني حتى لويت ظهره وسملت عينيه بعبراتي فلم يعد يرى غير الظلمة . هو أخ أحبه ويحبني ولكنه مثل جميع الأخوة يشترك بالمصيبة ولا يخففها ، ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة والقلب احتراقاً .

كنت اسمع سلمى متكلمة وعواطفي تنمو وصدري يضيق حتى شعرت بأن أضلعي تكاد تتفجر حناجر وفوهات ، أما الشيخ فكان ينظر اليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد والمساند ، ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السراج امام الريح ، ثم بسط ذراعيه وقال بهدوء : دعيني أذهب بسلام يا ولدي ، لقد لمحت عيناي مـــا وراء الغيوم ، فلن أحولها نحو هذه الكهوف . دعيني أطير فقد كسرت بأجنحتي قضبان هذا القفص ... قد نادتني أمك يا سلمى فلا توقفيني ... ها قـــد طابت الريح وتبدد الضباب عن وجـــه البحر فرفعت السفينة شراعها وتأهبت للسير فلا توقفيها ولا تنزعي دفتها . دعي جسدي يرقد مع الذين رقدوا ودعي روحي تستيقظ لأن الفجر قد لاح والحلم قد انتهى ... قبلي روحي بروحك ... قبليني

قبلة رجاء وأمل ولا تسكبي قطرة من مرارة الحزن على جسدي لئلا تمتنع الاعشاب والازهار عن امتصاص عناصره . ولا تذرفي دموع اليأس على يدي لأنها تنبت شوكاً على قبري . ولا ترسمي بزفرات الاسى سطراً على جبهتي لأن نسيم السحر يمر ويقرأه فلا يحمل غبار عظامي الى المروج الخضراء .. قد أحببتك بالحياة يا ولدي وسوف أحبك بالموت فتظل روحي قريبة منك لتحميك وترعاك .

والتفت الشيخ إلي وقد انطبقت أجفانه قليلاً فلم أعد أرى سوى خطين رماديين مكان عينيه ، ثم قال وسكينة الفناء تسترق ألفاظه : أما أنت يا ابني فكن أخاً لسلمى مثلما كان والدك لي . كن قريباً منها في ساعات الشدة ، وكن صديقاً لها حتى النهاية، ولا تدعها تحزن لأن الحزن على الاموات غلطة من أغلاط الأجيال الغابرة . بل اتلُ على مسمعها أحاديث الفرح وأنشدها أغاني الحياة فتسلو وتتناسى ... قل لأبيك أن يذكرني ، سله فيخبرك عن مآتي أيامي عندما كان الشباب يحلق بنا إلى الغيوم .. قل له اني احببته بشخص ابنه في آخر ساعة من حياتي ...

وسكت دقيقة وظلت أشباح ألفاظه تدب على جدران الغرفة ، ثم عاد فنظر إلي وإلى سلمى بوقت واحد وقال همساً : لا تدعوا طبيباً ليطيل بعقاقيره ساعات سجني لان أيام العبودية قد مضت فطلبت روحي حرية الفضاء . ولا

تدعوا كاهناً إلى جانب فراشي لان تعـازيه لا تكفر عن ذنوبي ان كنت خاطئاً ، ولا تسرع بي الى الجنة ان كنت باراً . ان ارادة البشر لا تغير مشيئة الله كما ان المنجمـين لا يحولون مسير النجوم . اما بعد موتي فليفعل الأطباء والكهان ما شاؤوا ، فاللجة تنادي اللجة امـا السفينة فتظل سائرة حتى تبلغ الساحل ...

* * *

عندما انتصف ذلك الليل المخيف فتح فارس كرامه عينيه الغارقتين في ظلمة النزع ، فتحهما لآخر مرة ، وحولهما نحو ابنته الجاثية بجانب مضجعه ، ثم حاول الكلام فلم يستطع لأن الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه الألفاظ لهاثاً عميقاً من بين شفتيه : ها قد ذهب الليل ... وجاء الصباح... يا سلمى . يا . يا سلمى ...

ثم نكس رأسه وابيض وجهه وابتسمت شفتـاه وأسلم الروح .

ومدت سلمى يدها ولمست يد والدها فوجدتهـا باردة كالثلج ، فرفعت رأسها ونظرت اليه فرأت وجهه مبرقعـاً بنقاب الموت ، فجمدت الحياة في جسدها وجفت الدموع في محاجرها ، فلم تتحرك ولم تصرخ ولم تتأوه ، بل بقيت محدقة اليه بعينين جامدتين كعيني التمثال، ثم تراخت أعضاؤها مثلما تتراخى طيات الثوب البليل ، وهبطت حتى لمست جبهتهـا

الارض ، ثم قالت بهدوء: اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .

* * *

مات فارس كرامه وعانقت الابدية روحه واسترجع التراب جسده ، واستولى منصور بك على أمواله وظلت ابنته أسيرة تعاستها ترى الحياة مأساة هائلة تمثلها المخاوف أمام عينيها .

أما أنا فكنت ضائعاً بين أحلامي وهواجسي ، تنتابني الأيام والليالي مثلما تنتاب النسور والعقبان لحمان الفريسة . فكم حاولت أن أفقد ذاتي بين صفحات الكتب لعلني استأنس بأخيلة الذين طواهم الدهر ، وكم جربت أن أنسى حاضري لأعود بقراءة الاسفار إلى مسارح الأجيال الغابرة ، فلم يجدني كل ذلك نفعاً بل كنت كمن يحاول اخماد النار بالزيت ، لأنني لم أكن أرى من مواكب الاجيال سوى اشباحها السوداء ، ولا أسمع من أنغام الأمم غير الندب والنواح ، فسفر ايوب كان عندي أجمل من مزامير داود ، ومراثي ارميا كانت أحب لدي من نشيد سليمان ، ونكبة البرامكة أشد وقعاً في نفسي من عظمة العباسيين ، وقصيدة ابن زريق أكثر تأثيراً من رباعيات الخيام ، ورواية هملت أقرب الى قلبي من كل ما كتبه الافرنج .

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير أشباحنا الرهيبة ، وهكذا يصم اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة .

بين عشتروت والمسيح

●

بين تلك البساتين والتلول التي تصل أطراف بيروت بأذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم العهد محفور في قلب صخرة بيضاء قائمة بين أشجار الزيتون واللوز والصفصاف . ومع ان هذا المعبد لا يبعد أكثر من نصف ميل عن طريق المركبات فقد قل من عرفه من محبي الآثار والخرائب القديمة ، فهو مثل أشياء كثيرة خطيرة في سوريا مختبىء وراء ستائر الاهمال ، فكأن الاهمال قد أبقاه محجوباً عن عيون الأثريين ليجعله خلوة لنفوس المتعبين ومزاراً للمحبين المستوحشين .

والداخل الى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشرقي منه صورة فينيقية الشواهد والبينات محفورة في الصخر قد محت أصابع الدهر بعض خطوطها ولونت الفصول معالمها ، وهي تمثل عشتروت ربة الحب والجمال جالسة على عرش فخم ومن حولها سبع عذارى عاريات واقفات بهيئات مختلفة ، فالواحدة منهن تحمل مشعلا والثانية قيثارة والثالثة مبخرة والرابعة جرة من الخمر والخامسة غصناً من الورد

والسادسة إكليلاً من الغار والسابعة قوساً وسهاماً ، وجميعهن ناظرات الى عشتروت وعلى وجوههن سيماء الخضوع والامتثال .

وعلى الجدار الثاني صورة أخرى أحدث عهداً وأكثر ظهوراً تمثل يسوع الناصري مصلوباً والى جانبه أمه الحزينة ومريم المجدلية وامرأتان ثانيتان تنتحبان . وهذه الصورة البيزنطية الأسلوب والقرائن تدل على كونها حفرت في القرن الخامس او السادس للمسيح .

وفي الجدار الغربي كوتان مستديرتان يدخل منهما شعاع الشمس عند أصيل النهار وينسكب على الصورتين فتظهران كأنهما قد طليتا بماء الذهب .

وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل على جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد انحجب بعضها تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل على أن الأقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هذا الحجر ويصبون فوقه قرابين الخمر والعطر والزيت .

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينة عميقة تعانق النفس وهيبة سحرية تبيح بتموجاتها أسرار الآلهة وتتكلم بلا نطق عن مآتي الأجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة الى حالة ومن دين الى دين ، وتستميل الشاعر الى عالم بعيد عن هذا العالم ، وتقنع الفيلسوف بأن الانسان مخلوق دين يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع عليه حواسه ، فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمعانيها على خفايا نفسه

ويجسم خياله بالكلام والانغـــام والصور والتماثيل التي تظهر بأشكالها أقدس ميوله في الحياة واجمل مشتهياته بعد الموت .

في هذا الهيكل المجهول كنت ألتقي سلمى كرامه مرة في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين إلى الصورتين الغريبتين مفكرين بفتى الأجيال المصلوب فوق الجلجلة مستحضرين إلى مخيلتينا أشباح الفتيان والصبايا الفينيقيين الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشتروت فحرقوا البخور امام تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم طوتهم الارض فلم يبق منهم سوى اسم تردده الأيام أمام وجه الأبدية .

كم يصعب علي الآن ان أدون بالكلام ذكرى تلك الساعات التي كانت تجمعني بسلمى ، تلك الساعات العلوية المكتنفة باللذة والألم ، والفرح والحزن ، والأمل واليأس ، وكل ما يجعل الانسان انساناً والحياة لغزاً ابدياً . ولكن كم يصعب علي أن أذكرها ولا أرسم بالكلام الضئيل خيالاً من أخيلتها ليبقى مثلاً لأبناء الحب والكآبة .

كنا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه ساندين ظهرينا إلى جداره مرددين صدى ماضينا مستقصيين ما تي حاضرنا خائفين مستقبلنا . ثم نتدرج إلى اظهار ما في أعماق نفسينا فيشكو كل منا لوعته وحرقة قلبه ومـــا يقاسيه من الجزع والحسرة ، ثم يصبّر واحدنا الآخر باسطاً أمامه كل ما في جيوب الأمل من الأوهام المفرحة والأحلام العذبة ، فيهدأ

روعنا وتجف دموعنا وتنفرج ملامحنا ، ثم نبتسم متناسين كل شيء سوى الحب وافراحه ، منصرفين عن كل أمر إلا النفس وميولها ، ثم نتعانق فنذوب شغفاً وهياماً ، ثم تقبّل سلمى مفرق شعري بطهر وانعطاف فتملأ قلبي شعاعاً ، وأقبل أطراف اصابعها البيضاء فتغمض عينيهـا وتلوي عنقها العاجي وتتورد وجنتاهـا باحمرار لطيف يشابه الأشعة الأولى التي يلقيها الفجر على جباه الروابي . ثم نسكت وننظر طويلاً نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلونة بأنوار المغرب البرتقالية .

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرة على مبادلة العواطف وبث الشكوى ، بل كنا ننتقل على غير معرفة منا الى العموميات فنتبادل الآراء والأفكار في شؤون هذا العالم الغريب ونتباحث في مرامي الكتب التي كنا نقرأها ذاكرين حسناتها وسيئاتهـا وما تنطوي عليه من الصور الخيالية والمبادىء الاجتماعية ، فتتكلم سلمى عن منزلة المرأة في الجامعة البشرية وعن تأثير الأجيال الغابرة في أخلاقها وميولها وعن العلاقة الزوجية في أيامنا هذه وما يحيط بها من الأمراض والمفاسد . واني أذكر قولها مرة : ان الكتّاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ولكنهم للآن لم يفهموا اسرار قلبها ومخبآت صدرها لأنهم ينظرون اليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها أو يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيهـا غير الضعف والاستسلام .

وقولها لي مرة أخرى وقد أشارت بيدها إلى الرسمين المحفورين على جدران الهيكل : في قلب هذه الصخرة قد نقشت الأجيال رمزين يظهران خلاصة ميول المرأة ويستجليان غوامض نفسها المراوحة بين الحب والحزن ، بين الانعطاف والتضحية ، بين عشتروت الجالسة على العرش ومريم الواقفة أمام الصليب ... ان الرجل يشتري المجد والعظمة والشهرة ولكن هي المرأة التي تدفع الثمن .

ولم يدر باجتماعاتنا السرية أحد سوى الله وأسراب العصافير المتطايرة بين تلك البساتين ، فسلمى كانت تجيء بمركبتها الى المكان المدعو بحديقة الباشا ثم تسير الهوينا على الممرات المنفردة حتى تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندة إلى مظلتها وعلى وجهها لوائح الأمن والطمأنينة فتجدني منتظراً مترقباً مشتاقاً بكل ما في الشوق من الجوع والعطش .

ولم نخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير ، لأن النفس اذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفع عما يدعوه الناس عيباً وعاراً وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري وتقف برأس مرفوع أمام عروش الآلهة .

ان الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً الى الشرائع الفاسدة فلم تعد قادرة على إدراك معاني النواميس العلوية الأولية الخالدة . وقد تعودت بصيرة الانسان النظر الى ضوء

الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع ان تحدق الى نور الشمس . لقد توارثت الأجيال الأمراض والعاهات النفسية بعضها عن بعض حتى أصبحت عمومية ، بل صارت من الصفات الملازمة للانسان فلم يعد الناس ينظرون اليهـــا كعاهات وأمراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية نبيلة أنزلها الله على آدم ، فإذا مـــا ظهر بينهم فرد خال منها ظنوه ناقصاً محروماً من الكمالات الروحية .

أما الذين سيعيبون سلمى كرامه محاولين تلويث اسمهـا لأنها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر فهم من السقماء الضعفاء الذين يحسبون الأصحاء مجرمين وكبار النفوس متمردين . بـــل هم كالحشرات التي تدب في الظلمة وتخشى الخروج إلى نور النهار كيلا تدوسها أقدام العابرين .

ان السجين المظلوم الذي يستطيع ان يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جباناً . وسلمى كرامه كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق ، فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء نافذة السجن الى الحقول الخضراء والفضـــاء الواسع ؟ هل يحسبها الناس خائنة لأنهـا كانت تجيء من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبي بين عشتروت المقدسة والجبـــار المصلوب ؟ ليقل الناس مـــا شاؤوا ، فسلمى قد اجتازت المستنقعات التي تغمر أرواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا يبلغه عواء الذئاب وفحيح الأفاعي . وليقل الناس ما أرادوا

عني ، فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص ، والجندي الذي رأى السيوف محتبكة فوق رأسه وسواقي الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقه بها صبيان الأزقة .

التضحيـة

●

ففي يوم من اواخر حزيران وقد ثقلت وطــأة الحر في السواحل وطلب الناس أعالي الجبال ، سرت كعادتي نحو ذلك المعبد واعداً نفسي بلقاء سلمى كرامـه حاملا بيدي كتاباً صغيراً من الموشحات الاندلسية التي كانت في ذلك العهد ولم تزل الى الآن تستميل روحي .

بلغت المعبد عند الاصيل فجلست ارقب الطريق المنسابة بين اشجار الليمون والصفصاف ، وانظر من وقت الى آخر الى وجه كتابي هامساً في مسامع الاثير ابيات تلك الموشحات التي تستهوي القلب برشاقة تراكيبها ورنة اوزانها ، وتعيد الى النفس ذكرى أمجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودعوا غرناطـة وقرطبـة واشبيلية تاركين في قصورها ومعاهدها وحدائقها كل ما في ارواحهم من الآمـــال والميول ثم تواروا وراء حجب الدهور والدمع في اجفانهم والحسرة في أكبادهم.

وبعد ساعة التفت فاذا بسلمى تميس بقدهـا النحيل بين الاشجار المحتبكة وتقترب نحوي مستندة الى مظلتها كأنها

تحمل كل ما في العالم من الهموم والمتاعب . ولما بلغت باب الهيكل وجلست بقربي نظرت الى عينيها الكبيرتين فرأيت فيهما معاني وأسراراً جديدة غريبة توحي التحذر والانتباه وتثير حب الاستطلاع والاستقصاء .

وشعرت سلمى بما يجول في خاطري فلم تشأ أن يطول الصراع بين ظنوني وهواجسي ، فوضعت يدها على شعري وقالت : اقترب مني ، اقترب مني يا حبيبي ، اقترب ودعني أزود نفسي منك ، فقد دنت الساعة التي تفرقنا الى الأبد .

فصرخت قائلاً : ماذا تعنين يا سلمى ، وأية قوة تستطيع أن تفرقنا الى الأبد ؟

فأجابت : ان القوة العمياء التي فرقتنا بالأمس ستفرقنا اليوم . القوة الخرساء التي تتخذ الشرائع البشرية ترجماناً عنها قد بنت بأيدي عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بيني وبينك . القوة التي أوجدت الشياطين وأقامتهم أولياء على أرواح الناس قد حتمت علي ان لا أخرج من ذلك المنزل المبني من العظام والجماجم .

فسألتها قائلاً : هل علم زوجك باجتماعاتنا فصرت تخشين غضبه وانتقامه ؟

فأجابت إن زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف أصرف أيامي ، فهو مشغول عني بأولئك الصبايا المسكينات اللواتي تقودهن الفاقة الى أسواق النخاسين فيتعطرن ويكتحلن ليبعن أجسادهن بالخبز المعجون بالدماء والدموع .

فقلت : إذاً ماذا يصدك عن المجيء الى هـــذا المعبد والجلوس بجانبي أمام هيبة الله وأشباح الأجيال ؟ هل مللت النظر الى خفايا نفسي فطلبت روحك الوداع والتفريق ؟

فأجابت والدمع يراود اجفانها : لا يا حبيبي . إن روحي لم تطلب فراقك لأنك شطرها ، ولا ملت عيناي النظر اليك لأنك نورهما . ولكن إذا كان القضاء قد حكم علي أن أسير على عقبات الحياة مثقلة بالقيود وبالسلاسل . فهل أرضى أن يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبي ؟

فقلت : تكلمي يا سلمى واخبريني عـــن كل شيء ولا تتركيني ضائعاً بين هذه المعميات .

فأجابت : لا أقدر أن أقول كل شيء ، لأن اللسان الذي أخرسته الأوجاع لا يتكلم ، والشفاه التي ختم عليها اليأس لا تتحرك ، وكل ما أقدر أن أقوله لك هو أني أخاف عليك من الوقوع في شرك الذين نصبوا لي الحبائل واصطادوني .

فقلت : ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخـــافين عليّ منهم ؟

فسترت وجهها بيديها وتأوهت ملتاعة ثم قالت مترددة : ان المطران بولس غالب قد صار يعلم بأنني أخرج مـــرة في الشهر من القبر الذي وضعني فيه .

فقلت : وهل علم المطران بأنك تلتقين بي في هذا المكان ؟

فأجابت : لو علم بذلك لما رأيتني الآن جالسة بقربك ،

ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بأفكاره ، وقد بث عليّ العيون لترقبني وأوعز الى خدمه ليتجسسوا حركاتي حتى صرت أشعر بأن المنزل الذي اسكنه والطرقات التي أسير عليها نواظر تحدق بي وأصابع تشير إليّ وآذاناً تسمع همس أفكاري .

وأطرقت هنيهة ثم زادت والدمع ينسكب على وجنتيها : أنا لا أخــــاف على نفسي من المطران لأن الغريــق لا يخشى البلل ، ولكنني أخاف عليك وأنت حر كنور الشمس أن تقع مثلي في أشراكه فيقبض عليك بأظافره. وينهشك بأنيابه أنا لا أخاف من الدهر لأنه أفرغ جميع سهامه في صدري ، ولكنني أخاف عليك وأنت في ربيع العمر أن تلسع الافعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبــــل حيث ينتظرك المستقبل بأفراحه وأمجاده .

فقلت : ان من لا تلسعه أفــــاعي الأيام وتنهشه ذئاب الليالي يظل مغروراً بالأيام والليالي . ولكن اسمعي يا سلمى، اسمعيني جيداً ، أليس أمامنا غير الفراق لنتقي صغارة الناس وشرورهم ؟ هل سدت أمامنا سبل الحب والحياة والحرية فلم يبق غير الاستسلام الى مشيئة عبيد الموت ؟

فأجابت بلهجة يساورها القنوط والحسرة : لم يبق أمامنا غير الوداع والتفرق .

فأخذت يدها وقد تمردت روحي فيداخلي وتبدد الدخان عن شعلة فتوتي، فقلت متهيجاً: قد استسلمنا طويلاً الى أهواء

الناس يا سلمى ... منذ تلك الساعة التي جمعتنا حتى الآن
ونحن ننقاد الى العميان ونركع أمام أصنامهم . منذ عرفتك
ونحن في يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفما
أراد ويقذفنا حيثما شاء ، فهل نبقى خاضعين لديه محدقين الى
ظلمة نفسه حتى يلوكنا القبر وتبتلعنا الأرض ؟ هل وهبنا
الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت ، وأعطانا الحرية
لنجعلها ظلاً للاستعباد ؟ ان من يخمد نار نفسه بيده يكون
كافراً بالسماء التي اوقدتها . ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على
الظلم يكون حليف البطل على الحق وشريك السفاحين بقتل
الابرياء . قد احببتك يا سلمى واحببتني ، والحب كنز ثمين
يودعه الله النفوس الكبيرة الحساسة ، فهل نرمي بكنزنا الى
حظائر الخنازير لتبعثره بأنوفها وتذريه بأرجلها ؟ امامنا العالم
مسرحاً واسعاً مملوءاً بالمحاسن والغرائب ، فلماذا نسكن في
هذا النفق الضيق الذي حفره المطران وأعوانه ؟ امامنا الحياة
وما في الحياة من الحرية وما في الحرية من الغبطة والسعادة ،
فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ونكسر القيود الموثقة
بارجلنا ونسير الى حيث الراحة والطمأنينة ؟ قومي يا سلمى
نذهب من هذا المعبد الصغير الى هيكل الله الاعظم . هلمي
نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة الى بلاد
بعيدة لا تطالها أيدي اللصوص ولا يبلغها لهاث الأبالسة .
تعالي نسرع الى الشاطىء مستترين بوشاح الليل فنعتلي سفينة
تقلنا الى ما وراء البحار وهناك نحيا حياة جديدة مكتنفة

بالطهر والتفاهم ، فلا تنفثنا الثعابين بأنفاسهـا ، ولا تدوسنا الضواري بأقدامها . لا تترددي يا سلمى، فهذه الدقائق اثمن من تيجان الملوك واسمى من سرائر الملائكة. قومي نتبع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة الى حقول تنبت الأزاهر والرياحين .

فهزت رأسها وقد شخصت عيناها بشيء غير منظور في فضاء ذلك الهيكل ، وسالت على شفتيها ابتسامة محزنة تعلن ما في داخل نفسها من الشدة والألم ، ثم قالت بهدوء : لا ، لا يا حبيبي ان السماء قد وضعت في يدي كأساً مفعمة بالخل والعلقم وقد تجرعتها صرفاً ولم يبق فيها غير قطرات قليلة سوف أشربها متجلدة لأرى ما في قعر الكأس من الأسرار والخفايا . أما تلك الحياة الجديدة العلوية المكتنفة بالمحبة والراحة والطمأنينة فأنا لا استحقها ولا أقوى على احتمال أفراحها وملذاتها ، لأن الطائر المكسور الجناحين يدب متنقلاً بين الصخور ولكنه لا يستطيع ان يسبح محلقاً في الفضاء، والعيون الرمداء تحدّق الى الأشياء الضئيلة ولكنها لا تقوى على النظر الى الأنوار الساطعة ، فلا تحدثني عن السعادة لان ذكرها يؤلمني كالتعاسة ، ولا تصور لي الهناء لأن ظله يخيفني كالشقاء ... ولكن انظر إليّ لأريك الشعلة المقدسة التي أوقدتها السماء بين رماد صدري .. أنت تعلم بأنني أحبك محبة الأم وحيدها ، وهي المحبة التي علمتني أن أحميك حتى ومن

نفسي . هي المحبة المطهرة بالنار التي توقفني الآن عن اتباعك الى أقاصي الأرض وتجعلني أميت عواطفي وميولي لكي تحيا أنت حراً نزيهاً وتظل في مأمن من لوم الناس وتقولاتهم الفاسدة . ان المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب ، أما المحبة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها . المحبة التي تجيء بين يقظة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وتقنع بالوصل وتنمو بالقبل والعناق ، أما المحبة التي تولد في احضان اللانهاية وتهبط مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفي بغير الخلود ولا تقف متهيبة أمام شيء سوى الالوهية ... عندما عرفت بالأمس ان المطران بولس غالب يريد أن يمنعني عن الخروج من منزل ابن اخيه ويسلبني اللذة الوحيدة التي عرفتها مذ تزوجت ، وقفت أمام نافذة غرفتي ونظرت نحو البحر مفكرة بما وراءه من البلاد الواسعة والحرية المعنوية والاستقلال الشخصي ، وتخيلت نفسي عائشة بقربك ، محاطة بأخيلة روحك مغمورة بانعطافك ، ولكن هذه الاحلام التي تنير صدور النساء المظلومات وتجعلهن يتمردن على التقاليد الباطلة ليعشن في ظل الحق والحرية ، لم تمر في خاطري حتى جعلتني استصغر نفسي واستضعفها وأرى محبتنا واهية محدودة لا تستطيع الوقوف أمام وجه الشمس . فبكيت بكاء ملك أضاع ملكه وغني فقد كنوزه ، ولكنني ما لبثت أن رأيت وجهك من خلال دموعي وأبصرت عينيك محدقتين الي ،

فتذكرت ما قلته لي مرة وهو : هلمي يا سلمى نقف أمـــام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا ، فان صرعنـــا نمت كالشهداء وان تغلبنا نعش كالابطال، لأن عذاب النفس بثباتها امام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهقرها الى حيث الأمن والطمأنينة ... هذه الكلمات قلتهـا لي يا حبيبي عندما كانت أجنحة الموت ترفرف حول مضجع والدي ، وقد ذكرتهـــا بالأمس وقد كانت أجنحة اليأس تصفق حول رأسي، فتقويت وتشجعت وشعرت وانا في ظلمـــة السجن بنوع من الحرية النفسية التي تستهون الشدائـد وتستصغر الأحزان ، ورأيت حبنا عميقاً كالبحر عالياً كالنجوم متسعاً كالفضاء . وقد جئت اليوم اليك وفي نفسي المتوجعة المنهوكة قوة جديدة وهي المقدرة على تضحيـة الأمر العظيم للحصول على أمر أعظم ، تضحيـة سعادتي بقربك لكي تبقى أنت شريفاً بعرف الناس بعيداً عن غدرهم واضطهادهم ... كنت اجيء بالأمس الى هذا المـكان والقيود الثقيلة تغـل قدمي الضعيفتين ، اما اليوم فقد جئت شاعرة بعزم يهزأ بثقل القيود ويستقصر الطريق. كنت اجيء مثل طيف طارق خائف ، اما اليوم فقد جئت مثـل امرأة حية تشعر بوجوب التضحية وتعرف قيمة الأوجاع وتريد ان تحمي من تحبه من الناس الأغبياء ومن نفسها الجـائعة . كنت أجلس حذاءك مثل ظل مرتجف وقد أتيت اليوم لأريك حقيقتي أمام عشتروت المقدسة ويسوع المصلوب . انا شجرة نابتة في

الظل وقد مددت اغصاني اليوم لكي ترتعش ساعة في نور النهار ... قد جئت لأودعك يا حبيبي فليكن وداعنا عظيماً وهائلاً مثل حبنا ، ليكن وداعنا كالنار التي تصهر الذهب لتجعله اشد لمعاناً .

ولم تترك لي سلمى مجالاً للكلام والاحتجاج بل نظرت الي وقد برقت عيناها فأحاطت أشعتها بوجداني واتشحت ملامح وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانت كمليكة توحي الصمت والتخشع . ثم ارتمت على صدري بانعطاف كلي ما عهدته فيها قبل تلك الساعة ، وطوقت عنقي بزندها الأملس وقبلت شفتي قبلة طويلة عميقة محرقة أيقظت الحياة في جسدي ، وأثارت الأسرار الخفية في نفسي ، وجعلت الذات الوضعية التي أدعوها « أنا » تتمرد على العالم بأسره لتخضع صامتة أمام الناموس العلوي الذي اتخذ صدر سلمى هيكلاً ونفسها مذبحاً .

* * *

ولما غربت الشمس وامحت أشعتها الأخيرة عن تلك الحدائق والبساتين انتفضت سلمى ووقفت في وسط الهيكل . ونظرت طويلاً إلى جدرانه وزواياه كأنها تريد أن تسكب نور عينيها على رسومه ورموزه ، ثم تقدمت قليلاً وجثت خاشعة أمام صورة يسوع المصلوب وقبلت قدميه المكلومتين مرات متوالية ثم همست قائلة :

ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركت مسرات عشتروت وأفراحها . قد كللت رأسي بالأشواك بدلاً من الغار، واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيوب، وتجرعت الخل والعلقم بالكأس التي صنعت للخمر والكوثر، فاقبلني بين تابعيك الأقوياء بضعفهم وسيرني نحو الجلجلة برفقة مختاريك المستكفين بأوجاعهم المغبوطين على كآبة قلوبهم .

ثم انتصبت والتفتت نحوي قائلة :

سأعود الآن فرحة الى الكهف المظلم حيث تتراكض الأشباح المخيفة، فلا تشفق عليّ يا حبيبي ولا تحزن من أجلي، لأن النفس التي ترى ظل الله مرة لا تخشى بعد ذلك أشباح الأبالسة ، والعين التي تكتحل بلمحة واحدة من الملإ الأعلى لا تغمضها أوجاع هذا العالم .

وخرجت سلمى من ذاك المعبد ملتفة بملابسها الحريرية وتركتني حائراً ضائعاً مفكراً مجذوباً إلى مسارح الرؤيا حيث تجلس الآلهة على العروش وتدون الملائكة أعمال البشر وتتلو الأرواح مأساة الحياة وتترنم عرائس الخيال بأناشيد الحب والحزن والخلود .

ولما صحوت من هذه السكرة ، وكان الليل قد غمر الوجود بأمواجه القاتمة ، وجدتني هائماً بين تلك البساتين مسترجعاً الى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلمى ، معيداً الى نفسي حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس

يديها ، حتى اذا ما اتضحت لي حقيقة الوداع ومـا سيجيء بعده من ألم الوحشة ومرارة الشوق جمدت فكرتي وتراخت خيوط قلبي وعلمت لأول مرة ان الانسان وإن ولد حرّاً يظل عبداً لقساوة الشرائع التي سنها آباؤه وأجداده ، وان القضاء الذي نتوهمه سرّاً علوياً هو استسلام اليوم الى مآتي الأمس ، وخضوع الغد الى ميول اليوم . وكم مرة فكرت منذ تلك الليلة الى هذه الساعة بالنواميس النفسية التي جعلت سلمى تختار الموت بـــدلاً من الحياة ، وكم مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لأرى أيها أجل وأجمل ، ولكنني للآن لم أفهم سوى حقيقة واحدة وهي ان الاخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة ، وسلمى كرامه كانت الاخلاص متأنساً وصحة الاعتقاد متجسدة .

المنقذ

•

ومرت خمسة أعـوام على زواج سلمى ولم ترزق ولداً ليوجد بكيانه العلاقة الروحية بينها وبين بعلهـا ويقرب بابتسامته نفسيهما المتنافرتين مثلما يجمع الفجر أواخر الليـل وأوائل النهار .

والمرأة العاقر مكروهة في كل مـكان لأن الأنانية تصور لأكثر الرجال دوام الحياة في أجساد الأبناء فيطلبون النسل ليظلوا خالدين على الأرض .

ان الرجل المادي ينظر الى زوجته العاقر بالعين التي يرى بها الانتحار البطيء فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كأنهـا عدو غدار يريـد الفتك به . ومنصور بك غالب كان مادياً كالتراب وقاسياً كالفولاذ وطامعاً كالمقبرة ، وكانت رغبته بابن يرث اسمه وسؤدده تكرّهه بسلمى المسكينة وتحول محاسنها في عينيه الى عيوب جهنمية .

ان الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمراً ، وسلمى كرامه كانت في ظل الحياة فـلم تثمر اطفالاً . ان البلبل لا يحوك عشاً في القفص كيلا يورث العبودية لفراخه ، وسلمى

كرامه كانت سجينة الشقاء فلم تقسم السماء حياتها الى أسيرين. إن أزاهر الأودية هي أطفال يلدها انعطاف الشمس وشغف الطبيعة ، وأطفال البشر أزاهر يلدها الحب والحنو ، فسلمى كرامه لم تشعر قط بأنفاس الحنو وملامس الانعطاف في ذلك المنزل الفخم القـــائم على شاطىء البحر في رأس بيروت ، ولكنها كانت تصلي في سكينة الليالي ضارعة أمام السماء لتبعث إليها بطفل يجفف بأصابعه الوردية دموعها ويزيل بنور عينيه خيال الموت عن قلبها .

وقد صلت سلمى متوجعة حتى مــــلأت الفضاء صلاة وابتهالاً ، وتضرعت مستغيثة حتى بدد صراخها الغيوم ، فسمعت السماء نداءها وبثت في أحشائها نغمة مختمرة بالحلاوة والعذوبة وأعدتها بعد خمسة أعوام من زواجها لتصيرها أماً وتمحو ذلها وعارها .

الشجرة النابتــة في الكهف قد أزهرت لتثمر .

البلبل المسجون في القفص قد هم ليحوك عشاً من ريش جناحيه .

القيثارة التي طرحت تحت الاقدام قد وضعت في مهب نسيم المشرق ليحرك بأمواجه ما بقي من أوتارها .

سلمى كرامه المسكينة قد مدت ذراعيهــا المكبلتين بالسلاسل لتقتبل موهبة السماء .

وليس بين أفراح الحياة ما يضارع فرح المرأة العاقر عندما تهيئها النواميس الأزلية لتصيرها أماً . كل ما في يقظة الربيع

من الجمال ، وكل ما في مجيء الفجر من المسرة ، يجتمع بين أضلع المرأة التي حرمها الله ثم اعطاها .

لا يوجد نور أشد سطوعاً واكثر لمعاناً من الاشعة التي يبعثها الجنين السجين في ظلمة الاحشاء .

وكان نيسان قد جاء متنقلاً بين الروابي والمنحدرات عندما تمت ايام سلمى لتلد بكرها ، وكأن الطبيعة قد وافقتها وعاهدتها فأخذت تضع حل ازاهرها وتلف بأقمطة الحرارة اطفال الأعشاب والرياحين .

مضت شهور الانتظار وسلمى تترقب الخلاص مثلما يترقب المسافر طلوع كوكب الصباح ، وتنظر الى المستقبل من وراء دموعها فتراه مشعشعاً ؛ وقد طالما ظهرت الأشياء القاتمة متلمعة من خلال الدموع .

ففي ليلة وقد طافت أشباح الظلام بين تلك المنازل في رأس بيروت ، انطرحت سلمى على مضجع المخاض والأوجاع ، فانتصب الموت والحياة يتصارعان بجانب فراشها، ووقف الطبيب والقابلة ليقدما الى هذا العالم ضيفاً جديداً ، وسكنت حركة عابري الطريق وانخفضت نغمة أمواج البحر ولم يعد يسمع في ذلك الحي سوى صراخ هائل يتصاعد من نوافذ منزل منصور بك غالب .. صراخ انفصال الحياة عن الحياة .. صراخ محبة البقاء في فضاء اللاشيء والعدم ... صراخ قوة الانسان المحدودة امام سكينة القوى غير المتناهية .. صراخ سلمى الضعيفة المنطرحة تحت أقدام

جبارين : الموت والحياة .

عندما لاح الفجر ولدت سلمى ابناً ، ولما سمعت اهلاله فتحت عينيها المغلفتين بالألم ونظرت حواليها فرأت الأوجه متهللة في جوانب تلك الغرفة ... ولما نظرت ثانية رأت الحياة والموت ما زالا يتصارعان بقرب مضجعها ، فعادت وأغمضت عينيها وصرخت لأول مرة : يا ولدي .

ولفت القابلة الطفل بالأقمطة الحريرية ووضعته حذاء أمه ؛ أما الطبيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ويهز رأسه صامتاً بين الدقيقة والأخرى .

وأيقظت نغمة الفرح بعض الجيران فجاؤوا بملابس النوم ليهنئوا الوالد بولده ، اما الطبيب فبقي ينظر بعينين كئيبتين نحو الوالدة وطفلها .

وأسرع الخدم نحو منصوربك ليبشروه بقدوم وارثه ويملأوا أيديهم من عطاياه ، اما الطبيب فلبث واقفاً ينظر بعينين يائستين الى سلمى وابنها .

ولما طلعت الشمس قربت سلمى ولدها من ثديها ففتح عينيه لأول مرة ونظر في عينيها واختلج وأغمضها لآخر مرة ، فدنا الطبيب وأخذه من بين ذراعيها وانسكبت على وجنتيه دمعتان كبيرتان ثم همس في سره قائلاً : هو زائر راحل ! .

مات الطفل وسكان الحي يفرحون مع الوالد في القاعة الكبرى ويشربون نخبه ليعيش طويلاً ، وسلمى المسكينة تحدق الى

الطبيب وتصرخ قائلة: أعطني ولدي لأضمه ، ثم تحدق ثانية فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها .

مات الطفل ورنات الكؤوس تنمو وتتكاثر بين أيدي الفرحين بمجيئه .

ولد مع الفجر ، ومات عند طلوع الشمس ، فأي بشري يستطيع أن يقيس الزمن ليخبرنا ما إذا كانت الساعة التي تمر بين مجيء الفجر وطلوع الشمس هي أقصر من الدهر الذي يمر بين ظهور الأمم وتواريها ؟

ولد كالفكر ، ومات كالتنهدة ، واختفى كالظل ، فأذاق سلمى كرامه طعم الأمومة ولكنه لم يبقَ ليسعدها ويزيل يد الموت عن قلبها .

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بابتداء النهار ، فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها أجفان الظلام ثم تجففها ملامس النور .

كلمة لفظتها النواميس الأزلية ، ثم ندمت عليها وأعادتها الى سكينة الأبدية ...

لؤلؤة قذفها المدّ الى الشاطىء ، ثم جرفها الجزر الى الأعماق ...

زنبقة ما انبثقت من أكمام الحياة حتى انسحقت تحت أقدام الموت ..

ضيف عزيز ترقبت سلمى قدومه ولكنه ، ما حل حتى ارتحل ، وما فتح مصراعي الباب حتى اختفى .

جنين ما صار طفلاً حتى صار تراباً – وهذه حياة الانسان بل حياة الشعوب ، بل حياة الشموس والأقمار والكواكب..

وحوّلت سلمى عينيها نحو الطبيب وتنهدت بشوق جارح ثم صرخت قائلة :

أعطني ابني لأضمه بذراعي .. أعطني ولدي لأرضعه ...

فنكس الطبيب رأسه وقال والغصات تخرسه :

قد مـــات طفلك يا سيدتي فتجلّدي وتصبّري لكي تعيشي بعده .

فصرخت سلمى بصوت هائل ، ثم سكتت هنيهــــة ، ثم ابتسمت ابتسامة فرح ومسرة ، ثم تهلل وجهها كأنها عرفت شيئاً لم تكن تعرفه وقالت بهدوء : أعطني جثة ولدي ... قرّبه مني ميتاً .

فحمل الطبيب الطفــل الميت ووضعه بين ذراعيها فضمته الى صدرها وحوّلت وجهها نحو الحائط وقالت تخاطبه :

قد جئت لتــأخذني يا ولدي . جئت لتدلني على الطريق المؤدية الى الساحل . ها أنذا يا ولدي فسر أمامي لنذهب من هذا الكهف المظلم .

وبعد دقيقة دخلت أشعة الشمس من بين ستائر النـافذة وانسكبت على جسدين هامدين منطرحين على مضجع تخفره هيبة الأمومة وتظلله أجنحة الموت .

فخرج الطبيب باكياً من تلك الغرفــــة ، ولما بلغ القاعة الكبرى تبدلت تهاليل المهنئين بالصراخ والعويل ، أمـــا

منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهد ولم يذرف دمعة ولم يفه بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه على كأس الشراب .

* * *

في اليوم التالي كفنت سلمى بأثواب عرسها البيضاء ووضعت في تابوت موشى بالمخمل الناصع ، أما طفلها فكانت أكفانه أقمطته وتابوته ذراعي أمه وقبره صدرها الهادىء .

حملوا الجثتين في نعش واحد ومشوا ببطء متلف يشابه طرقات القلوب في صدور المنازعين ، فسار المشيّعون وسرتُ بينهم وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي .

بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرتل ويعزم ، ووقف الكهان حوله ينغمون ويسبحون وعلى وجوههم الكالحة نقاب من الخلو والغفول .

ولما أنزلوا التابوت إلى أعماق الحفرة همس أحد الواقفين قائلاً :

هذه أول مرة رأيت جسدين يضمها تابوت واحد ...

وقال آخر :

كأن طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من مظالم زوجها وقساوته .

وقال آخر :

تأملوا بوجه منصور بك فهو ينظر الى الفضاء بعينين زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله في يوم واحد .

وقال آخر :

غداً يزوجه عمه المطران ثانية من امرأة أخرى أوفر ثروة وأقوى جسماً .

وظل الكهان يرتلون ويسبحون حتى فرغ حفار القبور من ردم الحفرة فأخذ المشيعون إذ ذاك يقتربون واحداً واحداً من المطران وابن أخيه يصبرونهما ويؤاسونهما بمستعذبات الكلام، أما أنا فبقيت واقفاً منفرداً .وحدي وليس من يعزّيني على مصيبتي ، كأن سلمى وطفلها لم يكونا أقرب الناس إليّ .

عاد المشيعون وبقي حفار القبور منتصباً بجانب القبر الجديد ، وفي يده رفشه ومحفره ، فدنوت منه وسألته قائلا :

أتذكر أين قبر فارس كرامه ؟

فنظر إليّ طويلا ثم أشار نحو قبر سلمى وقال :

في هذه الحفرة قد مددت ابنته على صدره ، وعلى صدر ابنته قد مددت طفلها ، وفوق الجميع قد وضعت التراب بهذا الرفش .

فأجبته : وفي هذه الحفرة أيضاً قد دفنت قلبي أيها الرجل، فما أقوى ساعديك !

ولما توارى حفار القبور وراء أشجار السرو خانني الصبر والتجلد فارتميت على قبر سلمى أبكيها وأرثيها .